التدرج الإيماني لآيات الترهيب في القرآن الكريم

تأليف

د. علي غانم سعد الله

دار الجنان للنشر والتوزيع

التدرج الإيماني لآيات الترهيب في القرآن الكريم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠١٧ م

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٩٩٢ / ٧/ ٢٠١٦)

رقم التصنيف: ٢٢٧

المؤلف وهو من في حكمه: سعدالله، علي غانم //// علي غانم سعد الله

عنوان الكتاب: التدرج الايماني لآيات الترهيب في القرآن الكريم

عمان: دار الجنان، ٢٠١٦

( ) ص

الواصفات: القرآن الكريم // آيات القرآن

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل المكتبة الوطنية

(ردمك) ISBN ٩٧٨- ٩٩٥٧- ٥٩٤ -٧٤- ٩

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠١٧م.

لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الجنان للنشر والتوزيع

الأردن – عمان – العبدلي – مركز جوهرة القدس – الطابق L

تلفاكس ٠٦ – ٤٦٥٩٨٩١ ص.ب: ٩٢٧٤٨٦ عمان ١١١٩٠ الأردن

E-mail: dar_ jenan@yahoo.com

www.daraljenan.com

التدرج الإيماني لآيات الترهيب

في القرآن الكريم

تأليف

د. علي غانم سعدالله

المقدمة

الحياة مع القرآن نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه، مع ذلك التصور الشامل الرفيع والنظيف للوجود، لغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني، ففيه حركة التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله.

إن وجودنا في هذه الدنيا أكبر بكثير من ظاهره المشهود، وأكبر من حقيقته، أنه عالم الغيب والشهادة لا عالم الشهادة فحسب، وأنه الدنيا والآخرة، لا هذه الدنيا وحدها، والنشأة الإنسانية ممتدة في شعاب هذا المدى المتطاول. والموت ليس نهاية الرحلة إنما هو مرحلة في الطريق، وما يناله الإنسان من شيء في هذه الدنيا ليس نصيبه كله إنما هو قسط من ذلك النصيب، وما يفوته هنا من الجزاء لا يفوته هناك، فلا ظلم ولا بخس ولا ضياع.

والمؤمن ذو نسب عريق ضارب في شعاب الزمان، إنه واحد من ذلك الرهط الكريم: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى ومحمد (ﷺ)، يواجه مواقف متشابهة وأزمات متشابهة على تطاول العصور وكر الدهور، وتغيّر المكان وتعدد الأقوام، يواجه الضلال والعمى، والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغي، والتهديد والتشديد، ولكنه يمضي ثابت الخطو، مطمئنّ الضمير واثقاً بنصر الله الصادق الأكيد ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١].

وفي القرآن لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾[٢]، وكل أمر لحكمة، ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية

---

(١) سورة إبراهيم/ الآية: ١٣.

(٢) سورة القمر / الآية: ٤٩.

القصيرة، والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقومات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها أو لا تعقبها، وإنما هي إرادة الله التي تنشئ الآثار والنتائج، وليست الأسباب والمقدمات ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾[1]. والمؤمن يأخذ بهذه الأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها، والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وإلى حكمه وعلمه هو وحده الملاذ الأمين.

والوجود ليس متروكاً لقوانين آلية عمياء صماء، فهناك دائماً وراء السنن الإرادة المدبرة والمشيئة المطلقة، والحق هو قوام هذا الوجود فإذا حاد عنه فسد وهلك، ومهما تكن الظواهر غير هذا فإن مصيرها إلى تكشّف صريح ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[2].

وعنوان كتابنا **((التدرج الإيماني لآيات الترهيب في القرآن الكريم))**، فقد جاء على هذه الصيغة لآن القرآن الكريم يضم آيات ترهيب بمستوى متدرج ابتداءً من آيات الترهيب في أمور العقيدة التي تنهى على الشرك والكفر والتكذيب بآيات الله، إلى غيره من الآيات التي تنشئ فرداً مسلماً مؤمناً بعيداً عن هذه الصفات المهلكة، وذلك من خلال إيمانه بالغيب، فالغيب هو مواد آيات العقيدة، فإذا أفلح الفرد في التخلص من هذه الصفات السيئة وجاهدها في نفسه فقد آمن بالله وآمن بوجود الله، ثم ينتقل الفرد المؤمن بعدما صقلت عقيدته وأصبح مؤمناً بمعنى الكلمة إلى واقعه الحياتي والمجتمعي، فلا يكذب ولا يرائي ولا يرابي ولا يتنابز بالألقاب ولا يبخس الناس أشياءهم، فعقيدته السليمة أنشأت له واقعاً مجتمعياً سليماً، ثم يأتي إلى قمة هرم التدرج الإيماني عندما يسمع آيات الترهيب في أمور الآخرة من عذاب النار وأهوال يوم القيامة الكونية، إنه آمن بالغيب أول مرة وها هو ذا يتلقى الغيب مرة أخرى في سير

---

(١) سورة الطلاق/ من الآية: ١.

(٢) سورة الأنبياء/ من الآية: ١٨.

رحلته لما بعد هذه الحياة القصيرة. فالتدرج الإيماني يبدأ بالعقيدة ثم ينتقل إلى الحياة والمجتمع ومن ثم يعرض للفرد غيب آخر يتمثل بالآخرة.

وقد كان منهجنا في الكتاب يسير وفق مواده ابتداءً من آيات الترهيب في أمور العقيدة، حيث عالجنا قضية الإيمان من كافة جوانبها التي تواجه البشر، ولما كان المتوارد على مسرح الأحداث وجود المؤمنين والملحدين فقد عمدنا إلى الهدف من خلال دعاوى الخصوم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وبينا أسسها البيولوجية والنفسية والتأريخية، فإذا بدأنا بمناقشة هذه المبادئ سلكنا ذات السبيل التي سلكتها حتى نقدر أن نرى مدى ضآلتها وعدم جدواها وباعتراف من الخصوم أنفسهم.

وإذا كان أعظم قضايا الدين بعد الإيمان بالله هو الإيمان باليوم الآخر لأنه أيضاً حقيقة غيبية لا مراء فيها، فإن الإلحاد ينكرها أيضاً، ولكننا في هذا الموضع لا نكتفي بدليل واحد، بل نقدم بحوثاً قيمة في حقيقة الآخرة من الناحية الكونية، ونسوق شهادات تجريبية ونفسية وروحية تؤكد وجود هذا اليوم، بحيث نزيد القارئ ثروة من المفاهيم، ونفتح له آفاق الاقتناع.

وبين مفاهيم العقيدة الغيبية والإيمان بالغيب الأخروي عقدنا فصلاً خاصاً بعلاقة الدين بمشكلات الحياة، وأهم مشكلة هي التشريع وعناصره الأساسية، ومقارنة الشرائع الإسلامية بتلك العلمانية التي تسوق البشرية إلى الهلاك.

وعقدنا منهجنا هذا من خلال الكتاب بثلاثة فصول:

شكل الفصل الأول **((التدرج الإيماني لآيات الترهيب في أمور العقيدة))** لأنها خامة الفرد والإنسان المسلم المؤمن الذي تفصله عن الكافر.

وجاء الفصل الثاني **((التدرج الإيماني لآيات الترهيب في أمور الحياة والمجتمع))** الذي تناول مشكلات التشريع وعناصره الأساسية.

بينما جاء الفصل الثالث **((التدرج الإيماني لآيات الترهيب في أمور الآخرة))** ليتناول معطيات الآخرة – النار – والعذاب – وأهوال يوم القيامة.

وحسبي في هذا الكتاب أن أضع منهجاً جديداً للإقناع الديني صادراً من نفسٍ مؤمنة إن شاء الله، ففي الإسلام طاقة لا يمكن أن تخمد وستظل المعجزات القرآنية تتوالى وتلاحق من لا يؤمن بالله، وتزيد الذين آمنوا إيماناً إلى إيمانهم.

د. علي غانم سعد الله

الفصل الأول

التدرج الإيماني لآيات الترهيب

في أمور العقيدة

العقيدة هي الدرس الأول الذي يجب أن يمحصه المسلم في نفسه وفكره وعقله وذاته وقلبه، فالعقيدة هي الإيمان بالغيب الذي يكون للمسلم حصانة ضد نفسه أولاً قبل أن يكون حصانة ضد مجتمعه؛ إنها العقبة التي يجب أن يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس، إنسان يشعر من خلال إيمانه بالغيب بأن مداه أوسع في الزمان والمكان، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه حقيقة أكبر من الكون هي التي صدر عنها وجوده الذاتي، حقيقة الذات الإلهية التي لا تدرها الأبصار.

وهذه العقيدة التي يكونها الإنسان لنفسه لهي أحفظ له في دنياه وآخرته، وهي مفترق الطرق بين إنسان غوي متكبر عاتي ظالم لا يعرف الله، وبين إنسان يشكل مشاعره بحساسية مطلقة تجاه أبسط أمور الدنيا والآخرة. فهل يستوي هو وذلك الجاهل الذي يعوث في الأرض فساداً، فمرة هو ينقض عهد الله ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾[1]، ومرة هو عدو الله وملائكته ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[2]، ومرة هو مشاقق للرسول ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[3]، وهكذا يستمر الإنسان الأعزل من العقيدة في غيِّهِ لأهل الأرض يسومهم سوء العذاب

(١) سورة البقرة/ من الآية: ٢٧.

(٢) سورة البقرة/ الآية: ٩٨.

(٣) سورة النساء/ الآية: ١١٥.

غير مبالٍ لعواقب أعماله، استحوذ عليه الشيطان فملأ قلبه غلاً وحقداً فعاث في الأرض فساداً كبيراً.

١. ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾(١).

هذه الآية الكريمة تمثل حقيقة الإنسان المنافق الذي يتخذ صوراً متعددة في واقع الحياة، يتلون كتلون فصول السنة، فمرة مع هؤلاء ومرة مع هؤلاء، إنها صورة قاتمة تنبئ عن حسٍ إيماني فارغ متجه نحو الضلال وسائر بشكل عكسي عن عالم الحق والعدل. وهذه الصورة التي مثلها المنافقون أذهبت عقيدتهم إلى الهاوية، من خلال إيمانهم بالظاهر وكفرهم بالباطن، إذ لم يتمكنوا من مواجهة الحق المنزَّل على سيدنا محمد (ﷺ)، إنهم يدّعون الذكاء والدهاء والقدرة على خداع الجماعة المسلمة ولكن القرآن يصف حقيقة فعلتهم فهم لا يخادعون المؤمنين فحسب وإنما يخادعون الله.

وهذه صفة المنافق لا عقيدة سليمة في كل جوانب حياته يختلق الفتن ويغوص في عوالم الدهاء والمكر ناسياً أنه في غفلة من أمره وأن الله خادع المنافقين لأنه مع الجماعة المسلمة في كل جوانب حياتها، وحقيقة كون الله مع الجماعة المسلمة يؤكدها القرآن الكريم ويثبتها دائماً، وهي حقيقة الصلة بين الله والمؤمنين، إنه يجعلهم في صفه وأمرهم أمره، ويأخذهم في كنفه، ويجعل عدوهم عدوه، وما يوجه العدو من مكر فهو موجه إلى الله قبل المؤمنين، وهذا هو التفضل الكريم الذي يرفع مقام المؤمنين ويعلي شأنهم إلى المستوى الذي يوحي بأن حقيقة الإيمان في هذا الوجود أكبر من كل الحقائق، والذي يسكب في قلب المؤمن طمأنينة لا حد لها، فيجعل الله قضية المؤمنين قضيته، ومعركتهم معركته، فماذا يكون العبيد بكيدهم

---

(١) سورة البقرة/ الآية: ١٤.

وخداعهم أمام الله عزَّ وجلَّ؛ فيجب على المؤمنين في كل زمان ومكان أن يتدبروا هذه الحقيقة ويطمئنّوا لها ويثبتوا ويمضوا في طريقهم طريق الإيمان الذي رزقهم الله به، ذلك الإيمان العميق الذي يخافه الغرب اليوم ويعمل ليل نهار لكي يجليه من صدور المؤمنين كما فعل أسلافهم من قبل بإعلانهم الإيمان الكاذب الذي وضعهم في مواجهة مع الله تعالى بشكل دائم.

وقد يسأل سائل لماذا هذا العداء مع المؤمنين ويجيب القرآن عن هذا السؤال بأن في قلوبهم مرض أي علة وآفة، وهذا المرض هو الذي أغلق قلوب وعقول الملحدين عن تقبّل حقيقة الإيمان بالله، فذهبوا مذاهب عديدة في دحض قضية الدين في عدم وجود الإله وأن الكون نتج بطريقة الصدفة، والدين كما يزعم هؤلاء شيء لا حقيقة له، وهو مظهر الغريزة الإنسانية الباحثة عن حقائق الكون والتي تحاول تفسيره، وأن هذه الغريزة الإنسانية الباحثة عن حقائق الكون شيء مستحسن في ذاتها ولكن المعلومات والوسائل المحدودة قد انتهت بأجدادنا إلى إجابات غير صحيحة، وهي التي تحتويها أفكارهم عن الدين والإله، أما اليوم وبعد توفر الوسائل العلمية والحضارية فقد حان أن نعيد النظر في جميع ما وصلنا من أفكار عن الدين والإله، ويذهب أحد فلاسفتهم وهو (أوجست كونت) - الذي نشأ في النصف الأول من القرن التاسع عشر – إلى أن تاريخ تطور الفكر الإنساني ينقسم إلى ثلاث مراحل:

الأولى: المرحلة اللاهوتية: وهي التي فسرت الأحداث باسم الإله.

الثانية: المرحلة الميتافيزيقية: وفيها فسر الإنسان الأحداث باسم عناصر خارجية لا يعلمها.

الثالثة: المرحلة الوضعية: التي أخذ فيها الإنسان يفسّر الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة.

يزعم هذا الفيلسوف أننا نعيش في هذه المرحلة التي تسمى في الفلسفة الحديثة بالوضعية المنطقية أو التجريبية العلمية، فكل معرفة مرتبطة بالتجارب بحيث

يمكن فحصها أو إثباتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وبناءً على هذا يدّعي أصحاب الإلحاد أن التطور الذي بلغ به الإنسان اليوم أعلى من الإنسانية والسر في ذلك أن الأفكار المتطورة الحديثة تؤكد أن الحقيقة ليست إلا ما يمكن فحصه وتجربته علمياً، وأقول إن هذه النقطة هي الفاصل بين المؤمن والملحد؛ فالمؤمن يؤمن بالغيب والملحد لا يقبل أن يؤمن بالغيب بل يريد أن يرى ويشاهد كل ما يدور في الكون منذ خلق الله تعالى الأرض والسماء وما عليهما ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾[1].

فهم يقولون أن التطور العلمي جلا للإنسان كثيراً من سلسلة الأحداث التي لم يشاهدها من قبل، فهو لم يكن على علمٍ بأسباب شروق الشمس والقمر وغروبها فزعم أن هناك قوة فوق الطبيعة تجعلها تشرق وتغرب. وها قد عرفنا اليوم أن شروق الشمس وغروبها يحدث لدوران الأرض حول نفسها، ويقولون إذا كان قوس قزح مظهراً لانكسار أشعة الشمس على المطر، فماذا يدعونا إلى القول بأنها آية الله في السماء. وعموماً بزعمهم إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة وهذه وجهة نظرهم ومبدؤهم في الطبيعة، أما مبدؤهم في علم النفس فهم يزعمون أن الدين هو نتاج اللاشعور الإنساني، وليس انكشافاً لواقع خارجي ويقول عالم نفسي ملحد منهم (ليس الإله سوى انعكاس للشخصية الإنسانية على شاشة الكون، وما عقيدة الدنيا والآخرة إلا صورة مثالية للأماني الإنسانية، وما الوحي والإلهام إلا إظهاراً غير عادي لأساطير الأطفال المكبوتة).

وقد اكتشف فرويد بعد جهد جهيد أن اللاشعور قد يقبل أفكاراً في الطفولة وتؤدي إلى أعمال عقلية، وهذا ما يحدث بالنسبة إلى العقائد الدينية حيث أن فكرة الجنة والجحيم ترجع إلى صدى الأماني التي تنشأ لدى الإنسان إبان طفولته، ولكن لم

---

(١) سورة الكهف/ الآية: ٥١.

تسنح له الفرصة لتحقيقها فتبقى دفينة في اللاشعور، ثم يفرض اللاشعور بدوره حياة أخرى يتيسر له فيها تحصيل ما كان يتبناه.

أما من جهة التاريخ فقد زعم الملحدون أن القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالإنسان، فلم يكن في استطاعته أن يفلت من السيول والأعاصير والطوفانات والزلازل والأمراض، فأوجد قوى فرضية يستغيثها لتنقذه من البلايا النازلة، وهكذا ظهرت الحاجة إلى شيء يجتمع له الناس ولا يتفرقون فاستغل اسم الإله الذي تفوق قوته قوة الإنسان.

وفي سياق متصل ترى الشيوعية أن الدين خدعة تاريخية، وهي تركز الأسباب في عوامل اقتصادية، لأنها تنظر إلى التاريخ في ضوء الاقتصاد، وهي ترى أن العوامل التاريخية التي خلفت الدين هي النظام البورجوازي الاستعماري القديم. ويقول فيلسوف الشيوعية إنجلز: (إن كل القيم الأخلاقية هي في تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية).

ويقول البيان الشيوعي: (إن الدستور والأخلاق والدين كلها خدعة البورجوازية، وهي تتستر وراءها من أجل مطامعها).

ويقول لينين في خطاب له ألقاه في المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعي في أكتوبر سنة ١٩٢٠: (إننا لا نؤمن بالإله، ونحن نعرف كل المعرفة أن أصحاب الكنسية والإقطاعيين والبورجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالاً ومحافظة على مصالحهم، إننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التي صدرت عن طاقات وراء الطبيعة ولا تتفق مع أفكارنا الطبقية).

هذه أقوال الملحدين التي تمثل مبادئهم في عدم وجود الإله والدين، ولكن أضواء العلم الحديث التي كشفت عن حقائق الدين لم تنجح من أية ناحية في الإساءة إليه، بل إن جميع ما وصل أو سيصل إليه العلم الحديث هو بمثابة تصديق لما أسماه الإسلام بالحقيقة الأخيرة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ

﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1]. فهؤلاء الذين يزعمون بعدم وجود الإله والدين لا بدَّ أن نواجههم بعلومهم المزعومة هذه ولنبدأ أولاً بقانون الطبيعة فلا حاجة لأن نفترض لحوارات الطبيعة إلهاً مجهولاً كما يقولون، ولنستمع بهذا الصدد ما قاله عالم مسيحي يقول: (إن الطبيعة حقيقة من حقائق الكون وليست تفسيراً له، لأن ما كشفتم ليس بياناً لأسباب وجود الدين، فالدين يبين لنا الأسباب والدوافع الحقيقية التي تدور وراء الكون، وما كشفتموه هو الهيكل الظاهر للكون، إن العلم الحديث تفسير لما يحدث وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع، فكل مضمون العلم إجابة عن السؤال ما هذا وليس لديه إجابة عن السؤال ولكن ماذا). وإن التفسير الذي نحن بصدده يتعلق بالأمر الثاني.

لنفهم هذا في مثال بسيط، فالكتكوت يعيش أيامه الأولى داخل قشرة البيضة القوية، ويخرج منها بعدما تتكسر مضغة لحم، كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه، ولكنا شاهدنا اليوم بالمنظار أنه في اليوم الحادي والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت يستعمله في تكسير البيضة لينطلق خارجاً منها ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروج البيضة. والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لا تدلنا إلا على حلقات جديدة للحادث، وهي العلة التي كانت بمعرفة كاملة عن حاجة الكتكوت لهذا القرن لكي يخرج من البيضة، هل كل هذه الأمور جاءت مصادفة؟

يقول البروفيسور (زسيسيل هامان) وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا: كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءاً مهماً من البدن والتي توصل العلم اليوم إلى أنها تفاعلاً كيمياوياً، ونقول من القوة التي أخضعت العناصر الكيمياوية لكي تصبح تفاعلاً مفيداً، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش بطريق الصدفة، فقد صار علينا حتماً بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل قوانينه العظمى التي خلق بها الحياة.

---

(١) سورة فصلت/ من الآية: ٥٣.

كان الإنسان القديم يعرف بأن السماء تمطر، لكنا اليوم نعرف كل شيء عن عملية تبخر الماء في البحر، حتى نزول قطرات الماء على الأرض، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع، وليست في ذاتها تفسيراً لها، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين، وكيف قامت بين الأرض والسماء بهذه الصورة المفيدة المدهشة، حتى أن العلماء يستنبطون منها قوانين عامة.

والحقيقة أن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون – ليس سوى خدعة لنفسه، فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة.

إذن فالكشوف العلمية أبانت لنا كثيراً من الأمور التي لم نكن على معرفة بها، ولكن الدين جواب لسؤال آخر لا يتعلق بهذه الكشوف العلمية الحديثة، فلو أن هذه الكشوف العلمية زادت مليون ضعف عنها اليوم فسوف تبقى الإنسانية بحاجة إلى الدين، لأن ما يحل محل الدين لا بدَّ أن يشرح الكون شرحاً كلياً وكاملاً، فما الكون على حاله هذا إلا كمثل ماكنة تدور تحت غطائها لا نعلم عنها إلا أنها تدور، ولكنا لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الماكنة بدوائر وتروس كثيرة يدور بعضها ببعض ونشاهد حركاتها كلها، هل معنى هذا أننا قد علمنا خالق هذه الماكنة بمجرد مشاهدتنا لما يدور بداخلها؟ هل يفهم منطقياً أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الماكنة جاءت من تلقاء ذاتها، وتقوم بدورها ذاتياً، لو لم يكن هذا الاستدلال منطقياً فكيف إذن نثبت بعده مشاهدة بعض عمليات الكون – أنه جاء تلقائياً ويتحرك ذاتياً بطريق الصدفة.

ولننتقل الآن إلى الدليل الذي يقدمه علم النفس والقائل بأن الإله والآخرة قياس للشخصية الإنسانية وأمانيها على مستوى الكون. فنحن نعرف أن مادة الجنين التي لا تشاهد إلا بالمنظار تنبئ في ذاتها عن إنسان طوله (٧٢ بوصة)، وأن الذرة التي لا تقبل المشاهدة تحتوي نظاماً رياضاً كونياً يدور عليه النظام الشمسي، فلا عجب إذن

أن يكون النظام الذي نشاهده على مستوى الإنسان في الجنين، وعلى مستوى النظام الشمسي في الذرة موجوداً أيضاً، وعلى مستوى الكون. إن ضمير الإنسان وفطرته ينشدان عالماً متطوراً كاملاً، ذلك أن الذهن الإنساني يحتفظ بأفكار قد تظهر فيما بعد في صورة غير عادية، ولكن سوف يكون قياساً مع الفارق أن تعتمد على هذه الفكرة كي نبطل الدين، فهو قياس في غير محله، وهو يعتبر استدلالاً غير عادي من واقع عادي، وهذا من معايب الفكر الحديث في أنه يستنبط واقعاً عادياً دليلاً غير عادي، فالقيم تتغير ذاتياً بتغير الأوضاع، ومن الخطأ الظن بأنها لا توجد إلا عند أصحاب الفكر الحديث.

إذن فاللاشعور الإنساني من الواجهة العلمية فراغ في أصله، لا شيء فيه قبل مولد الإنسان، وإنما يستقر فيه عن طريق الشعور ما يشغله الآن، لأن اللاشعور ليس مخزناً للمعلومات والمشاهدات التي شاهدها الإنسان في حياته ولو مرة واحدة، ومن المستحيل أن يختزن حقائق لم يشاهدها من قبل، والذي يثير الدهشة أن الدين الذي جاء على لسان الأنبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس في أي زمان، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات فمن أين يأتي الأنبياء بأشياء لا طريق لهم إلى العلم بها.

إن الدين الذي جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع العلوم المعاصرة، الطبيعة، الفلك، علم الحياة، علم الإنسان، علم النفس، التاريخ، والحضارة والسياسة والاجتماع وغيرها من العلوم، وكل حديث في التاريخ الإنساني مصدره الشعور واللاشعور لا يخلو من الأغلاط والأكاذيب والأدلة الباطلة، أمّا الكلام النبوي فإنه بريء ولا شك من كل هذه العيوب، رغم اتصاله بجميع العلوم، ولقد مرت قرون إثر قرون أبطل فيها الآخرون ما ادعاه الأولون، وما زال صدق كلام النبوة باقياً على مر الزمان، ولم يستطع أحد أن يدل على باطل جاء به، وكل من حاول ذلك أخفق.

ومثالنا على ذلك ما قاله فلكي من فلاكة الغرب سنة ١٩٣٥م وهو (جميز هنري بريستد) في أنه كشف غلطة عملية في القرآن الكريم. وذلك من خلال التقويم القمري والشمسي، حين أدعى هذا الفلكي بأن سيدنا محمد (ﷺ) أبطل إضافة الشهور الكبيسة، فقال إن السنة القمرية تشمل ٣٥٤ يوماً، وتقل أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية، وهكذا تزيد السنة القمرية سنة واحدة كل ٣٣ سنة، وثلاث سنين في كل قرن، فلو حل رمضان في يونيو في هذه السنة فسوف يحل بعد ست سنين في أبريل.

وأقول إن ما نسبه الفلكي إلى رسولنا هو في الواقع غفلة شديدة منه ذلك أنه لم يراجع القرآن الكريم ويرى أنه لم يمنع إضافة الشهور الكبيسة وإنما حرّم النسيء، فقال ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾[1] والنسيء معناه في اللغة (التأخير)، ومنه نسأ الدابة عن الحوض لكي تشرب الأخرى، ومعنى النسيء في الاصطلاح (تأخير شهر وتقديم شهر آخر عليه).

ولقد كان من العادات الكريمة التي دعا إليها إبراهيم (عليه السلام) العرب تحريم أربعة أشهر لا قتال فيها ولا جدال، وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وقد كان العرب يسافرون في هذه الأشهر بكل حرية، لكي يؤدوا فريضة الحج والعمرة، وحين دب الفساد في بعض القبائل، اخترعوا بدعة (النسيء) وهي أن يضعوا شهراً غير حرام محل الشهر الحرام، كأن يجعلوا صفر مكان المحرم، وذلك لكي يحاربوا قبيلة يلزم قتالها في الشهر الحرام، وهذه هي البدعة المقيتة التي وصفها القرآن بأنها ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾.

هذا ما قصده القرآن الكريم في تحريم النسيء، فسار عليه سيدنا رسول الله (ﷺ) في التقويم القمري، ولم يلغِ القرآن الكريم ولا سيدنا رسول الله (ﷺ) إضافة الشهور الكبيسة وإنما غاب ذلك عن بال الفلكي الغربي (جيمس هنري) فوقع هو بالخطأ وحاشا الخطأ عن سيدنا محمد (ﷺ) وعن القرآن الكريم.

---

(١) سورة التوبة/ من الآية: ٣٧.

أما ناحية الاستدلال بالتاريخ والاجتماع فنرى أن خطأهم الأساسي أنهم لا يدرسون الدين من وجه صحيح، ولهذا يبدو لهم الدين شيئاً غريباً، ومثال ذلك أن ترى شيئاً مربعاً من زاوية منحرفة فيتراءى لك مثلثاً. إن الخطأ الذي يقعون فيه هو أنهم يتناولون الدين على أنه مشكلة موضوعية فهم يجمعون في سلة واحدة كل ما أطلق عليه اسم الدين من رطب ويابس في أي مرحلة من التاريخ، ثم يتأملون في ضوء هذا المحصول حقيقة الدين، فينحرف موقفهم في أولى مراحله، فيبدو لهم الدين جراء هذا الموقف الفاسد – عملاً اجتماعياً، لا كشفاً لحقيقة، ومن المعلوم أن لكل ما يكشف عن حقيقة من الحقائق مثلاً أعلى، ولا بدَّ عند البحث عن هذه الحقائق أن ندرس مظاهرها وتاريخها في ضوء مثله الأعلى، أمّا الأمور التي تأتي بها الأعمال الاجتماعية فبقاؤها منوط بحاجة المجتمع إليها.

والدين يختلف عن ذلك كل الاختلاف، فليس من الممكن البحث عن حقائقه كما يبحث عن تطورات فنون العمارة والنسيج والحياكة والسيارات وغيرها، لأن الدين علم على حقيقة يقبلها المجتمع أو يرفضها، ولهذا لا يمكن أن نفهم حقائق الدين بمجرد فهرسة مماثلة لجميع الأشكال الموجودة في المجتمعات باسم الدين.

ولنأخذ – على سبيل المثال – لفظ الجمهورية فهي قيمة سياسية لنظام خاص بالحكم، وفي ضوء هذه القيمة نستطيع أن نحكم على بلاد بأنها جمهورية أو أنها ليست كذلك، لكنا لو ذهبنا نبحث عن معاني الجمهورية في النماذج السياسية التي توجد عبر القارات، ويلتصق بها لفظ الجمهورية، ثم زعمنا أن كل هذه البلاد قائمة على أسس جمهورية. فسوف تصبح كلمة الجمهورية بلا معنى، ففي هذه الحالة ستختلف جمهورية الصين عن جمهورية الولايات المتحدة، وستعارض جمهورية إنكلترا جمهورية العربية المتحدة، كما أن جمهورية باكستان ستصطدم بالجمهورية التي تلتزم بها الهند. فإذا تأملنا كل هذه المشاهدات في فلسفة التطور فإن كلمة جمهورية سوف تفقد معناها حتماً، لأن فرنسا التي أنجبت النظام الجمهورية سوف تبرهن على أن

الجمهورية بعد (نشوئها وارتقائها) تتمثل في ديكتاتورية ديكول العسكرية.إذن فكرة فهرسة حقائق الدين تبعاً للأشكال الاجتماعية الموجودة في المجتمع فكرة غير صائبة وبعيدة عن المفهومية، ولعلّ فكرة (ماركس) هي أكثر نظريات هذه المجموعة عبثاً، فهي تقول: إن الأحوال الاجتماعية هي التي تقوم ببناء الإنسانية وتكميلها، ومن ثم كان العصر الذي وجد فيه الدين عصر الإقطاع والرأسمالية، وهو عصر الانتهازيين واللصوص، كما أن الأفكار الدينية والأخلاقية التي تولدت في هذه العصر تحمل نفس الطابع الانتهازي الاستعماري. والحق أن هذه الفكرة ليست لها من الناحية العلمية، كما أنها عند التحليل العلمي والتجربة العلمية لا طريق إلى تصديقها. فالفكرة الماركسيّة تنفي بشدة إرادة الإنسان، وهي تحيل الأحداث إلى تأثير عوامل الزمن الاقتصادية، ومعنى ذلك أن الإنسان لا شخصية له، فهو يصاغ في مجتمعه، كما يصاغ الصابون في المصنع، ولا طريق أمامه كي يشقّ أفكاراً وطرقاً جديدة، وإنما هو ينطلق مفكراً على النهج الذي سمحت له به حياته الاقتصادية، فإذا كانت هذه القضية صحيحة، فكيف تمكن كارل ماركس – وليد النظام الرأسمالي – من أن يفكر ضد العوامل الاقتصادية الرائجة في عصره، هل صعد إلى القمر لكي يبحث في أحوال الأرض. وبعبارة أخرى: لو صحّ أن الدين وليد عصر مخصوص فكيف لم تكن الماركسية وليدة النظام الاقتصادي لعصرها؟؟ وإذا لم نسغ هذا الوضع فيما يتعلق بالماركسية فكيف يمكن أن نسيغه بالنسبة إلى الدين؟ الحق أن هذه الفكرة عبث لا يحمل على ظهره دليل علمي أو عقلي.

إذن هذه هي قضية الملحدين، فإنهم نظروا إلى حقائق ناقصة وجزئية لا يتصل بعضها بالموضوع مطلقاً، واعتقدوا أن الدراسة العلمية الحديثة قد أبطلت الدين، على حين أننا لو نظرنا إلى الواقع جملة وتفصيلاً فسوف نصل إلى نتيجة تختلف عن الأولى كل الاختلاف. والدليل على صدق الدين، هو أن عقولاً مثالية منا – بعد أن تركت الدين أخذت تهذي بكلمات لا حقائق وراءها، وتعمه في تيه الظلام، ذلك أن

الإنسان بعد أن يفقد أساس الدين لا يجد أساساً آخر لأفكاره، إذ نرى الكثير ممن تخلوا عن الدين يكتبون ضروباً من اللغو غاية في الإهمال والتمزق، حتى أننا نتحيّر كيف صورت كلمات بهذه المغالطة عن قلم عالم من العلماء، وأن السجل الذي أنتجه هؤلاء ليشمل على خرافات وآراء متناقضة، واعترافات بجهل الحقيقة، كما يشمل على أدلة أشبه بالسفسطة، فبطولة هؤلاء تكمن في أنهم أغمضوا أعينهم عن الحقائق الظاهرة وشادوا قناطر خيالية في الادعاء.

وتتجلى حقيقة الدين وسفسطة الملحدين أكثر من ذلك حين نطالع صورة الحياة الإنسانية في ضوء الدين، إنها صورة جميلة لطيفة، تتوافق مع أفكار الإنسان السامية، كما يتوافق الكون المادي مع القوانين الرياضية، بعكس تلك الصورة التي يرسمها الملحدون، فهي صورة جد قبيحة، وهي لا تتفق أبداً مع الذهن الإنساني، وانظر إلى ما يقوله أحد فلاسفة الفكر المادي وهو برتراندرسل: والإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف، إن بدأه ونشوءه، وأمانيه ومخاوفه، وحبه وعقائده، كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نظام الذرة، والقبر ينهي حياة الإنسان، ولا تستطيع أية قوة إحياءه مرة أخرى. وإن هذه المجهودات الطويلة والتضحيات والأفكار الجميلة والبطولات العبقرية، كلها سوف تدفن إلى الأبد مع فناء النظام الشمسي تحت أنقاض الكون.

وتكاد هذه السطور أن تكون خلاصة الفكر المادي، فالكون في ضوء هذا الفكر المادي يكاد يفقد أهدافه، ولا يبقى غير الظلام الحالك، الظلام الذي تتلاشى فيه معايير الخير والشر، حتى إن إبادة الناس بالقنابل لا تعد ظلماً. إن أبواب عقول الماديين مؤصدة دون أي كلام مهما يكن علمياً عن الإله والدين، فهم يحملون تعصباً مقيتاً ضد الأفكار الدينية، ولقد صدق أحد أهم علماء الفكر المادي، وهو البريطاني جيمس جينز في كتابه (عالم الأسرار) حينما قال: إن في عقولنا تعصباً يرجح التفسير المادي للحقائق.

كما روى عالم آخر من علماء الفكر المادي وهو (ويتر شامبرز) في كتابه (الشهادة) حادثاً كان من الممكن أن يصبح نقطة تحول في حياته، حيث ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلفتت أذناها نظره، فأخذ يفكر في أنه من المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق كهذه الأذن بمحض الصدفة، بل لا بدَّ أنه وجد نتيجة إرادة مدبر، ولكن (ويتكر شامبرز) طرد هذه الوسوسة عن قلبه، حتى لا يضطر أن يؤمن منطقياً بالذات التي أرادت فدبرت.

ويقول الأستاذ الدكتور (تامس ديودباركس) بعد أن يذكر هذا الحادث: إنني أعرف عدداً كبيراً من أساتذتي في الجامعة، ومن رفاقي العلماء الذين تعرضوا مراراً لمثل هذه المشاعر، وهم يقومون بعمليات كيمياوية وطبيعية في المعامل. وفي سياق متصل أجمع علماء هذا العصر على صدق نظرية النشوء والارتقاء، وقد بدأت هذه النظرية تسود فعلاً فروع العلوم الحديثة، فكل مشكلة تحتاج (إلهاً) في تفسيرها توضع مكانه هذه النظرية بغير تردد. هذا جانب من النظرية، وأمّا الجانب الثاني وهو الجانب المظلم منها الذي يقرر (فكرة التطور العلمي) الذي استنبطت منه فكرة الارتقاء، فقد بقي إلى يومنا هذا بلا براهين، وبلا أدلة عملية، حتى أن الكثير من العلماء قال؛ إنهم لا يؤمنون بهذه النظرية غير أنه لا يوجد بديل لها سوى الإيمان بالله مباشرة. وكتب سير آرثر كيت يقول: إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة عملياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالله مباشرة، وهذا من لا يمكن حتى التفكير فيه.

إنهم يعرفون طريق الحقيقة ولكن تعصبهم الأعمى يحول دون ذلك. فكيف لنا أن نأمن هؤلاء الذين يحاربون الإسلام اليوم ويتلونون كما تتلون الحرباء، ويسعون في الأرض فساداً وتقتيلاً لبني البشر.

٢. ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[1].

هذه الآية تحمل سمة عقيدية راسخة تتمثل في الإيمان الذي يحمله الفرد، فإذا كان الفرد يحمل الإيمان في قلبه فهو ذو عقيدة راسخة لا تحده حدود في التعامل مع مواثيق الله، فلا ينقض العهد، وبذلك يخرج من كل ما يعوق حياته في الدنيا والآخرة، فالذي ينقض عهد الله يخرج عن منهجه فيتحول إلى وحش كاسر على البشرية يظلم ويقتل ويسفك الدماء ويشيع الفتن، ويقطع الرحم وما أمر الله به أن يوصل. وصلة الرحم هذه أمرنا بها ربنا وحث عليها فنحن كلنا أولاد آدم، وهناك روابط إنسانية يلفتنا إليها الله، فصلة الرحم توجد نوعاً من التكافل الاجتماعي لكي لا يحس الفرد بالضياع، فتماسك الفرد مع أسرته يجنبه التفكك الاجتماعي.

إن التخلي عن الإيمان بالله ونقض العهد يؤدي إلى جعل الفرد كما أسلفنا كوحش كاسر يفسد في الأرض ويقطع رحمه، ويعيش بضياع تام وتيه عظيم لا يقدر أن يتخلص صاحبه من براثنه وبالتالي يصاب بأمراض نفسية تؤثر على من حوله من خلال تصرفاته المقصودة وغير المقصودة، وتتحول الحياة إلى حركة من الشقاء والشر بدلاً من السعادة والأمن، ولا يستطيع علم الأرض كله أن ينجي الفرد من ضلاله البعيد عن الإيمان.

ولنستمع إلى ما قاله كارل يونج، وهو من أعظم الأطباء، في كتابه (الإنسان العصري يبحث عن نفسه): إن كل المرضى الذين استشاروني خلال الثلاثين سنة الماضية من كل أنحاء العالم كان مرضهم هو نقص إيمانهم وتزعزع عقائدهم ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم.

---

(١) سورة البقرة/ الآية: ٢٧.

ولقد قال أفلاطون (إن أكبر أخطاء الأطباء أنهم يحاولون علاج الجسد دون العقل في حين إن العقل والجسد وجهان لشيء واحد فلا ينبغي أن يعالج أحد الوجهين على حدة). وبعد ألفين وثلاثمائة عام تأكد الطب من صدق هذا القول فأنشئ (الطب النفساني الجسماني) بعد أن أصبحت الخسائر التي تحدثها الأمراض النفسية في الأرواح عشرة آلاف ضعف خسائر الأمراض الأخرى الجسمانية، ويعادل ألم المرض النفسي ألم الأمراض الأخرى كألم الأسنان التالفة وقرحة المعدة وغيرها. وتعاني الإنسانية في كافة الدول من الأمراض النفسية ما جعلها تضع الطب النفسي الآن في مقدمة فروع الطب.

وقد صرح الدكتور مايو وهو أحد أصحاب مستشفى مايو أن في أمريكا أكثر من نصف المرضى يشكون من اضطرابات عصبية لا جسمانية، واستقر الرأي أخيراً على أن قرحة المعدة سببها القلق حيث يحول القلق العصارات الهاضمة إلى عصارات سامة تؤدي في كثير إلى قرحة المعدة. ويقول الدكتور جوزيف مونتاجي في كتابه (اضطرابات المعدة العصبية) إن قرحة المعدة لا تأتي مما تأكله، ولكنها تأتي مما يأكلك. ويقول الدكتور ألكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل في الطب (إن الذين لا يكافحون القلق يموتون مبكراً).

ومن العجب أن يصل البحاث والأطباء إلى أنه لا علاج لهذه الأمراض إلا الإيمان بالله القادر الواحد الأحد، فيقول وليم جيمس أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد (إن أعظم علاج للقلق ولا شك هو الإيمان)، ويقرر الدكتور بريل (إن المرء المتدين حقاً لا يعاني قط مرضاً نفسياً). ويقول ويل كارنيجي (إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوي والاستمساك بالدين كفيلان بأن يقهرا القلق والتوتر النفسي وأن يشفيا هذه الأمراض).

وهل هناك إيمان أقوى من ذلك الذي دعا إليه الإسلام في آيات الله في القرآن الكريم؛ أوليس دعوة الإسلام إلى الإيمان المطلق بالله إيماناً كاملاً قوياً وقاية للإنسان، وعلاجاً له من كافة الأمراض النفسية.

إذن فأهم القضايا المرتبة في عدم الإيمان بالله هي الأمراض النفسية التي تعصف بالفرد فتدمر حياته، وأن لا حلّ لهذه الأمراض إلا بالتسليم بقضاء الله وقدره وهذا يعني إيماناً قوياً بالله. ولقد كان الإيمان بالقضاء والقدر موضع دراسات كثيرة من يوم أن نادى به الإسلام؛ وكان خصوم الإسلام يتخذون من هذا التسليم المطلق لله وسيلة لقولهم إن الإسلام دين تواكل واستسلام، وقد أوضح العلم الحديث بعد أن تقدمت أبحاث النفس والاجتماع مدى ما هدف إليه الإسلام بالإيمان بالقضاء والقدر من خير للمسلم والإسلام، فهو يخلق في نفس الفرد رضا يجعله يقبل كل ما يصيبه من مكروه ويسترجع ويستعيد بالله القائل ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [1].

فهل هناك عزاء للنفس، وتصبير للمصاب أكثر من ذلك، والإحساس بالرضا بما ليس منه بد ينصح به علماء النفس وحكماء العصر الحديث، فنصيحة وليم جيمس؛ وهو أحد مشاهير الفلاسفة التي يضعها علماء النفس موضع الاعتبار (كن مستعداً لتقبل ما ليس منه بد، فإن تقبل الأمر الواقع خطوة أولى نحو التغلب على ما يكتنف هذا الأمر الواقع من صعاب).

أما شوبنهور الفيلسوف المعروف فإنه أودع نتائج دراسته لشؤون الحياة في حكمته القائلة (إن التسليم بالأمر الواقع ذخيرة لا غناء عنها في رحلاتنا عبر الحياة).

وعندما قالت مركريت فوللر، إحدى زعيمات النهضة النسائية في لندن (إنني أرضى بكل ظروف الدهر) علق توماس كارليل الكاتب المعروف (إن هذا والله خير ما تفعله)، ويقول سينيكا أحد فلاسفة الرومان (إذا بدا لك كل ما لديك قليلاً فاعلم أنك لو امتلكت الدنيا لاعتقدت أن ما لديك قليل).

ويقول ديل كارنيجي (لقد قرأت خلال الأعوام الثمانية الماضية كل كتاب وكل مجلة وكل مقالة عالجت موضوع القلق؛ فهل تريد أن تعرف أحكم نصيحة وأجداها خرجت بها قراءاتي الطويلة؛ إنها (إرضَ بما ليس منه بد). وإيمان الناس بالله قد كتب

---

(١) سورة البقرة/ الآية: ١٥٦.

عليهم كل ما يصيبهم يجعلهم يتوخون في معاملاتهم السماحة والصفاء والحب والسلام طالما أن الرابح يعلم أن ربحه من الله وغير الرابح يؤمن بأن هذا ما أراده الله فلا حقد إذن ولا حسد وإنما صفاء ومحبة.

فينبغي شكر الله دائماً وعدم التذمر، وقد أوضح علم النفس أن حديث الإنسان إلى نفسه عما يستحق شكر الله عليه هو وسيلة النجاح بالحياة والتخلص من كل العقد النفسية التي تصيب الإنسان، يقول ديل كارنيجي مؤسس معهد العلاقات الإنسانية بنيويورك، (إن كالنتبون بعد أن أصاب نجاحاً كبيراً في أعماله طُلب إليه أن يقدم نتيجة للشباب المتلهف على النجاح فقال (فليتحدثوا كل يوم إلى أنفسهم كما كنت أفعل، ففي هذا حافز على العمل في حياتنا وشحذ للهمم، فإن حياتنا من نسيج أفكارنا وخواطرنا؛ وبحديثك إلى نفسك كل صباح تستطيع أن تزود نفسك بخواطر الشجاعة والسعادة والقوة والسلام، وبحديثك إلى نفسك عن الأشياء التي تستحق أن نشكر الله عليها تملأ ذهنك بخواطر البهجة والانشراح وإذا ملأت ذهنك بالأفكار الصحيحة وسعك أن تستمتع بأي عمل مهما يثقل عليك).

ويقول جون ميللر مؤلف كتاب (ألقِ نظرة إلى نفسك) إنه قد التزم في حياته بمبدأ يقول (إن تعاقب الليل والنهار كفيل من تلقاء ذاته أن يمحو القلق، فلهذا لا أفكر في مشكلة تطرأ لي وتستحثني على القلق حتى ينقضي عليها أسبوع، وبديهي أنه بعد هذه المدة إما أن تكون المشكلة قد حلت وإما أن يكون التفكير فيها قد تغير).

أما بودلي فيقول في كتابه (عشت في جنة الله): إنني لم أعان شيئاً من القلق قط وأنا أعيش في الصحراء، بل هناك في جنة الله وجدت السكينة والقناعة والرضا، وكثيرون من الناس يهزؤون بالجبرية التي يؤمن بها الأعراب، والواقع أنهم أصابوا كبد الحقيقة، وأنني بعد مغادرتي الصحراء لازلت ألتزم مواقف العرب حيال قضاء الله، فأقابل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة، ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير.

وفي ذات السياق يقول جيمس متشنر (كثيراً ما أحسست وأنا أعيش بين المسلمين أن الله عندهم حقيقة أكبر مما هي عن المسيحيين).

هذا هو الإيمان الذي يدعو إليه الإسلام سلامة في القلب والفكر والحس فلا ينقلب الفرد على عقبيه فينقض عهد الله ولا يقطع ما أمر الله به أن يوصل ولا يفسد في الأرض بل يؤمن بـ(لا إله إلا الله) أي لا موجود بحق إلا الله.

أنا وأنت وهو وهم ونحن كلنا مجرد صور تبرق وتختفي على شاشة الوجود، كما تتجمع الصور على شاشة التليفزيون ثم تزول عند انقطاع التيار الكهربائي، وهكذا دواليك تتعاقب العصور والدهور كما تنبت أوراق الأشجار الخضراء في الربيع ثم تعود فتسقط في الخريف، وتتراكم الأوراق الميتة كما يتراكم الموتى بعضهم فوق بعض في التراب.

ربَّ لحد قد صار لحداً مراراً
ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين فوق بقايا دفين
في طويل الأزمان والآباد

حتى ليصبح أديم الأرض بعد ملايين السنين هو أجدادنا (خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد).

ومن تحت التراب يستخرج الحفارون مكحلة ينظر إليها خبير الآثار فيقول إنها مكحلة أخت الحاكم بأمر الله وعمرها تسعمائة سنة وفيها بقايا كحل؛ أين أخت الحاكم بأمر الله وأين عصرها. أنت تكاد تسمع خطوات الجواري ... وترى الماشطات والوصيفات. وعن بعد تصطك سيوف الحراس، ويرتفع صوت مؤذن، وتصهل الخيول، وينادي أغا القصر على رسول قادم من بعيد ... ويقبل علينا الحاكم بأمر الله في هيلمان الخدم والحشم. أين كل هذا، تحت الردم ... إنتهى ... أصبح تراباً ... كان حلماً في مخيلة الزمان وغداً نصبح أنا وأنت تحت الردم، ويصبح عصرنا سطراً

في كتاب، وحلماً في مخيلة مؤرخ. الكل إلى موت، لأنه لا حقيقة سوى الواحد الأحد الحي الذي لا يموت ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[1]. أفق إلى نفسك فأنت غير موجود، أنت ظل وشأنك شأن الظل موجود على الأرض ما دامت الشمس في كبد السماء فإذا غربت لم يعد لك وجود، واختفت معك كل الظلال التي كانت تتطاول بأعناقها إلى جوارك. وجودك كان يعتمد على مدد من سواك، فهو وجود غير حقيقي، وجود مفتقر إلى غيره، أنت موجود بالله وبالمدد الذي يمدك به، فإذا قطع عنك المدد انتهى أمرك. أمّا الله فهو موجود بذاته، ومستغنٍ عن غيره، وعن كل الأغيار فهو الموجود بحق، لا موجود بحق سواه، ومن ثم فمنه ينبع الكل وإليه يعود الكل، وهو الباقي أبداً وما عداه زائل دواماً. الإيمان الراسخ والثابت هو المنجي من الضلال عندما نقتدي به فلن يعبد بعضنا بعضاً، ولن يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً، ولن نقتل على شيء وقد أدركنا أنه لا شيء هناك، ولن يأخذنا الغرور وقد أدركنا أننا خيالات ظلت تموج على صفحة الماء.

ولن نفرح بثراء ولن نحزن لفقر، ولن نتردد أمام تضحية ولن نجزع أمام المصيبة، فقد أدركنا أن كل هذه حالات عابرة، وسوف تلهمنا هذه الحقيقة أن نصبر على أشد الآلام فهي آلام زائلة شأنها شأن المسرات. لن نخاف من الموت، وكيف يخاف ميت من الموت، ولن يخاف بعضنا بعضاً ... وكل واحد فينا قد عرف أنه ليس إلا خيالاً لا يرهب إلا العصافير. وسوف نحب ونعطي في تواضع، وسوف نصمد ونقاتل في شجاعة، وسوف نتلقى أوسمة المجد في خجل، وسوف نستمع إلى كلمات المديح والإطراء في حياء، وسوف نتحمل بعير حدود، ونضحي بغير حدود.

لن نخاف الحرب ولا القنبلة ولا الميكروب ولا المرض، لأننا أدركنا وحدة الفاعل، وأنه لا فاعل في الحقيقة إلا الله وكل هذه أسباب، الميكروب لا يضر ولكن الله هو الضار النافع، وهو الذي يسلط الأسباب، هو الذي خلق العقرب والسم والوردة؛ وهو الذي

---

(١) سورة الزمر / الآية: ٣٠.

ينشر العبير وينشر السم في العروق، هو مناط الهلاك ومناط النجاة، لا راد لقضائه ولا معقب لأمره، هو الفاعل الوحيد وكلنا أدواته. وسوف تمتلئ قلوبنا سكينة وطمأنينة وأمنا، فقد أدركت هذه القلوب أن ممدها الحي الذي لا يموت.

٣. ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[١].

تعمل الآية الكريمة على توضيح ما لليهود من رذائل، فهم بإظهار عداوتهم لأقرب خلق الله وهما جبريل وميكال يعلنون بذلك عداوة لله أيضاً، ومن يعادي الله فهو أخسر الخاسرين. إن عداوة الملائكة مثل عداوة الله، ولقد جاء الله سبحانه بالملائكة ككل ... ثم ذكر جبريل وميكال بالاسم، ويسمى هذا باللغة العربية مجازاً مرسلاً، من باب تسمية الجزء باسم الكل، فالمسألة ليست مجزأة بل هي قضية واحدة، فالفرد الذي يؤمن برسول ولا يؤمن بآخر فهو ذو عقيدة ناقصة، وهذه حال اليهود يؤمنون ببعض الرسل ولا يؤمنون بآخر، لا بل إنهم كذبوا الرسل وقتلوا بعضهم.

وهذه هي دسائس اليهود مع الرسل ومع المؤمنين إلى يومنا هذا، وما تزال الأمة تعاني من دسائسهم ومكرهم أكثر مما عاناه أسلافنا في المدينة وفي مكة بداية تشكل الجماعة المسلمة، ويبقى اليهود آمنون ما انصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية، وينابيع معرفتها الصافية، وهنا المسألة الضرورية؛ لأن من يصرف الأمة عن دينها وقرآنها فإنه من عملاء اليهود، سواءً عرف أم لم يعرف، أراد أم لم يرد، فسيظل اليهود في مأمن من هذه الأمة ما دامت مصروفة عن الحقيقة الواحدة المفردة التي تستمد منها قوتها وغلبتها ووجودها وهي حقيقة العقيدة الإسلامية الإيمانية الراسخة.

وهكذا نرى الحق وهو يقصّ على هذه الأمة ما يحذرهم به لكي لا يقعوا بما وقع به بنو إسرائيل من قبل، فلما وقع المسلمون اليوم بما وقع به بنو إسرائيل في

---

(١) سورة البقرة/ الآيتين: ٩٨ -٩٩.

طرح منهج الله وشريعته، وحكموا أهوائهم وشهواتهم، وقتلوا فريقاً من الهداة وكذبوا فريقاً، ضربهم الله بما ضرب به بنو إسرائيل من الفرقة والضعف، والذلة والهوان، والشقاء والتعاسة، فالمسألة مسألة عقيدة فاسدة تتبع الأهواء فتظِل وتُظل.

فمن وراء ترك اليهود لشرائع الله عاشوا في عزلة تامة، ولم يعودوا يشعرون بالوشيجة الإنسانية الكبرى، وأخذوا يشعرون فإنهم فرع مقطوع من الحياة، فأخذوا يتربصون بالبشرية الدوائر، ويكنون للناس البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد، ويذيقون البشرة وجع هذه الأحقاد فتناً يوقدونها للشعوب، وحروباً يثيرونها، وهلاكاً يسلطونه على الناس، ويسلطه الناس عليهم، وتدور دائرة الشر في العالم ولا تنتهي لأنهم ينقلون أمراضهم إلى غيرهم وإلى المسلمين بالذات.

ولعلنا نرى ما تعاني منه بلاد المسلمين اليوم من جراء اكتسابهم لتلك الأمراض اليهودية، فما هو العمل الذي ينقذنا من هذه الأمراض. إنه بكلمة واحدة العودة إلى منهج الله من خلال بناء عقيدة إيمانية قوية في نفوس المسلمين من خلال تربية النفس، وزرع روح الأخوة المسلمة وترك الدنيا وبهرجتها لأنها فانية والأعمار قصيرة والحساب قريب.ثم يمضي السياق القرآني ليوضح الآيات البينات التي أنزلها الله على سيدنا محمد ﴿ﷺ﴾ وذكر أن من يكفر بها فهو من الفاسقين، والمعنى أن الآيات التي أيّد بها الله سبحانه وتعالى محمداً ﴿ﷺ﴾ ظاهرة ولا تحتاج إلى دليل، فرسول الله ﴿ﷺ﴾ الذي لم يقرأ كلمة في حياته يأتي بهذا القرآن المعجز لفظاً ومعنى.

ولا شك أن أول خاصية يتنبه لها الباحث في العلوم القرآنية هي ذلك التحدي الصريح الذي وجهه القرآن للناس كافة منذ أربعة عشر قرناً، وبخاصة أولئك الذين ينكرون رسالة القرآن، ولم يستطع أحد من عباقرة البشر أن يرد التحدي إلى الآن، ولقد أعلن القرآن بصوت عالٍ لا إبهام فيه ولا غموض ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1]. إنه أغرب تحد

(١) سورة البقرة/ الآية: ٢٣.

في التاريخ، وأكثره إثارة للدهشة، فلم يستطع أحد من الكتاب في التاريخ الإنساني، وهو بكامل عقله ووعيه أن يقدم تحدياً مماثلاً.

وفي صفحات التاريخ بعض الوقائع، غر أصحابها الغرور فانطلقوا يواجهون هذا التحدي. وأولى هذه الوقائع ما حدث من الشاعر لبيد بن ربيعة، الشهير ببلاغة منطقه، وفصاحة لسانه، ورصانة شعره، فعندما سمع أن محمداً ﴿ﷺ﴾ يتحدى الناس بكلامه قال بعض الأبيات رداً على ما سمع وعلقها على الكعبة، وكان التعليق على الكعبة امتيازاً لا يتسنى إلا لكبار الشعراء، فلما رأى أحد المسلمين هذا الأمر أخذته العزة، فكتب بعض آيات القرآن الكريم وعلقها بجوار أبيات لبيد، ولما رأى لبيد الآيات أذهلته فصرخ قائلاً (والله ما هذا بقول بشر، وأنا من المسلمين)[١].

وهجر لبيد الشعر بعدها حتى أن عمر بن الخطاب ﴿ﷺ﴾ قال له يوماً: يا أبا عقيل: أنشدني شيئاً من شعرك، فقرأ سورة البقرة، وقال: ما كنت لأقول شعراً بعد أن علمني الله سورة البقرة وآل عمران[٢].

وأمّا الحادث الثاني فهو أغرب من الأول، وهو عن ابن المقفع، أورده المستشرق (ولاستن) في كتابه (حياة محمد) وعلق عليه قائلاً: إن اعتداد محمد بالإعجاز الأدبي للقرآن لم يكن على غير أساس، بل يؤيده حادث وقع بعد قرن من قيام دعوة الإسلام.

والحادث كما جاء على لسان المستشرق، هو أن جماعة من الملاحدة والزنادقة أزعجهم تأثير القرآن على عامة الناس، فقرروا مواجهة تحدي القرآن واتصلوا بعبد الله بن المقفع (ت٧٢٧م)، وكان أديباً كبيراً، وكاتباً ذكياً، يعتد بكفاءته قبل الدعوة للقيام بهذه المهمة، وأخبرهم أن عمله يستغرق سنة فيجب أن يتكفلوا له بكل ما يحتاج خلال هذه السنة. ولما مضى على الاتفاق نصف عام، عادوا إليه، وبهم تطلع إلى

---

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة ٢٧٥/١.

(٢) ينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة ٢٧٥/١ وما بعدها.

معرفة ما حققه لهم أديبهم الفارسي الأصل، فوجدوه جالساً والقلم في يده، مستغرقاً في التفكير، وأوراقه متناثرة على الأرض كثير منها ممزقة. حيث أصيب ابن المقفع بإخفاق شديد، واعترف لأصحابه بعدم مقدرته والخجل والضيق يملآن نفسه، عندها تخلى ابن المقفع عن مهمته مغلوباً منهزماً[١].

أمّا عن نبوءات القرآن، فمن هذه النبوءات ما تحقق في وقته، ومنها ما هو في انتظار ميعاده. ففي وقعة بدر قال الله تعالى ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[٢]، وقد حدث، وقبل دخول مكة حينما كانت العودة إلى الكعبة حلماً بعيد التحقيق يراود المسلمين في مهجرهم بالمدينة جاء الوحي ليؤكد ما رآه النبي في رؤياه ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[٣]، وقد حدث.

ثم وعد إسرائيل الذي قال فيه القرآن مخاطباً اليهود ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾[٤]. وها هي إسرائيل تعلو تطغى للمرة الثانية علوها الكبير الذي تحلم فيه باجتياح النيل والفرات، وهو علو إلى انخفاض وهزيمة كما قال القرآن. وعن انتصار الروم بعد هزيمتها نزلت النبوءة ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾[٥]. فغلبة الروم على الفرس تنبأ بها القرآن الكريم لا بل حددها زمنياً بمدة بضع سنين والبضع من ثلاثة إلى عشرة، وقد تحققت النبوءة.

---

(١) حياة محمد، ولاستن ١٤٣ وما بعدها.

(٢) سورة القمر / الآية: ٤٥.

(٣) سورة الفتح/ الآية: ٢٧.

(٤) سورة الإسراء/ الآية: ٤.

(٥) سورة الروم/ الآيات: ٢-٤.

وهنا أحببت أن نقف على قصة الروم مع الفرس لنتبنى معالم هذه القصة. كانت الإمبراطورية الفارسية تقع شرقي الجزيرة العربية على الساحل الآخر للخليج العربي، في حين كانت الإمبراطورية الرومانية تمتد من غربي الجزيرة على ساحل البحر الأحمر إلى ما فوق البحر المتوسط، وقد سميت الأولى أي الفارسية بالإمبراطورية الساسانية، وسميت الثانية بالبيزنطية. وكانت حدود الإمبراطوريتين تصل إلى الفرات ودجلة في شمال الجزيرة العربية، وكانتا أقوى حكومتين شهدهما ذلك العصر.

وكانت الإمبراطورية الرومانية تتمتع بمكانتها كأرقى دولة حضارية في العالم. وقد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم، كما لم يشغلهم زوال أية حضارة أخرى، وفي الحقيقة لا يغني كتاب من الكتب التي ألفت حول هذا الموضوع ككتاب (سقوط واندحار الإمبراطورية الرومانية) لإدوارد جين، فهو أكثرها تفصيلاً وثقة، وقد ذكر المؤرخ في الجزء الخامس من كتابه الوقائع المتعلقة بغلبة الروم على الفرس. اعتنق الملك (قسطنطين) الديانة المسيحية عام ٣٢٥م، وجعلها ديانة البلاد الرسمية، فآمنت بها أكثرية رعايا الروم، وعلى الجانب الآخر رفض الفرس – عباد الشمس – هذه الدعوة. وكان الملك الذي تولى زمام الإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن التاسع الميلادي هو (موريس)، وكان ملكاً غافلاً عن شؤون البلاد السياسية، ولذلك قاد جيشه ثورة ضده بقيادة (فوكاس)، وأصبح فوكاس ملك الروم، بعد نجاح الثورة والقضاء على العائلة الملكية بطريقة وحشيّة، وأرسل سفيراً إلى إمبراطورية إيران (كسرى أبرويز الثاني) وهو ابن (أنوشيروان) العادل.

وكان (كسرى) مخلصاً للملك المخلوع (موريس) إذ كان قد لجأ إليه كسرى عام ٥٩١م، بسبب مؤامرة داخلية في الإمبراطورية الفارسية، وقد ساعده موريس في استعادة العرش، كما كان بينها نسب تمثل بتزويج بنت موريس لكسرى ولذلك كان يدعوه بالأب.

ولما عرف كسرى بأخبار انقلاب الروم على الملك موريس غضب غضباً شديداً، وأمر بسجن السفير الرومي، لا بل أغار كسرى على بلاد الروم، حيث زحفت جحافله عابرة نهر الفرات إلى الشام، ولم يتمكن فوكاس من صد جيش كسرى فاستولى على مدينتي (أنطاكية والقدس)، واتسعت فجأة حدود الإمبراطورية الفارسية إلى وادي النيل، وكانت بعض الفرق المسيحية كالنسطورية واليعقوبية حاقدة على النظام الجديد في روما؛ فناصرت الفاتحين، وتبعها اليهود، مما سهل غلبة الروم. وأرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية إلى الحاكم الرومي في المستعمرات الأفريقية يناشدونه إنقاذ الإمبراطورية فأرسل الحاكم جيشاً كبيراً بقيادة ابنه الشاب (هرقل) فسار بجيشه في الطريق البحرية، بسرية تامة، حتى أن (فوكاس) لم يدر بمجيئهم إلا عندما شاهد الأساطيل وهي تقترب من السواحل الرومانية، عندما استطاع هرقل أن يستولي على الإمبراطورية الرومانية، وقتل فوكاس الخائن. بيد أن هرقل لم يتمكن برغم استيلائه على الإمبراطورية، وقتله فوكاس – من إيقاف طوفان الفرس، فضاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد في شرقي العاصمة وجنوبيها، ولم يعد العلم الصليبي يرفرف على العراق والشام وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى، بل علتها راية الفرس.

ويقول المؤرخ جبن، ولو كان كسرى صادقاً، لكان اصطلح مرح الروم، بعد قتلهم فوكاس، ولاستقبل هرقل كخير صديق أخذ بثأر حليفه الملك (موريس)، ولكنه أبان عن نواياه الحقيقية عندما قرر مواصلة الحرب[1].

في هذه الأثناء استبد اليأس بهرقل، وقرر العودة إلى قرطاجنة على الساحل الأفريقي، وفي هذه الساعة الحرجة تحايل عليه كبير أساقفة الروم باسم الدين والمسيح، ونجح في إقناع هرقل على البقاء والقتال، فذهب هرقل مع الأسقف إلى قويان (سانت صوفيا) يعاهد الله تعالى على أنه لن يعيش أو يموت إلا مع الشعب. وبينما سيطرت على العاصمتين الفارسية والرومانية هذه الأحداث، فقد سيطرت على

---

(١) سقوط واندحار الإمبراطورية الرومانية ٧٤/٥.

شعب العاصمة المركزية في شبه الجزيرة العربية – مكة المكرمة – مشكلة مماثلة فقد كان الفرس مجوساً من عباد الشمس والنار، وكان الروم من المؤمنين بالمسيح، وبالوحي، وبالرسالة، وبالله تعالى، وفي الحقيقة كان المسلمون – نفسياً – مع الروم يرجون غلبتهم على الكفار والمشركين، كما كان كفار مكة مع الفرس، لكونهم من عباد المظاهر المادية.

وأصبح الصراع بين الفرس والروم رمزاً خارجياً للصراع الذي كان يدور بين أهل الإسلام وأهل الشرك في مكة، وبطريقة نفسية كانت كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجي هي نفس مآل صراعها الداخلي، فلما انتصر الفرس على الروم سنة ٦١٦م، واستولوا على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم، انتهزها المشركون فرصة للسخرية من المسلمين، قائلين: لقد غلب إخواننا على إخوانكم، وكذلك سوف نقضي عليكم، إذا لم تصطلحوا معنا تاركين دينكم الجديد، وكان المسلمون بمكة في أضعف وأسوأ أحوالهم المادية، وفي هذه الأثناء العصيبة نزل الوحي إلى رسول الله (ﷺ) مبلغاً إياه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾[1].

وتعليقاً على هذه النبوءة يكتب جبن قائلاً (في ذلك الوقت، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة، لم تكن آية نبوءة أبعد منها وقوعاً، لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكم هرقل كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية).

---

(١) سورة الروم/ الآيات: ١ -٦.

ولكن من المعلوم أن هذه النبوءة جاءت من لدن من هو مهيمن على كل الوسائل والأحوال، ومن بيده قلوب الناس وأقدارهم ولم يكد جبريل يبشر النبي بهذه البشرى، حتى أخذ انقلاب يظهر على شاشة الإمبراطورية الرومانية، ويرويه جبن على النحو التالي:

لقد كان (هرقل) صاحب ملذات وغاية في الكسل، بل كان متفرجاً أبله استسلم لمصائب شعبه، ولكن هرقل هذا الذي ساده الضباب طوال فترة حكمه – فجأة – أخذته الحميّة على شعبه وإمبراطوريته فترك دوافعه الذاتية وملذاته وتحول إلى قائد حازم استطاع أن يخوض ست حروب شجاعة ضد الفرس، فهرقل ذلك الملك الغافل الفاقد للعزيمة – وضع خطة عظيمة لقهر الفرس، وبدأ في تجهيز العدة والعتاد، فخرج مع جنوده، وبدأ لكثير من سكان (القسطنطينية) أنهم يرون آخر جيش في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية. وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة، ولذلك أعدَّ بحريته للإغارة على الفرس من الخلف فهزمهم ولاذوا بالفرار.

ومن جهة أخرى فاجأ هرقل الفرس في (آسيا الصغرى) وأنزل فيهم هزيمة فادحة، واستطاع هرقل بعد ذلك أن يخوض ثلاث حروب أخرى ضد الفرس في سنوات ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥م. استطاع فيها أن ينفذ إلى أراضي العراق القديم عن طريق البحر الأسود، ولكن المعركة الحاسمة والمصيرية التي كسرت ظهر الفرس – كانت تلك الحرب التي خاضها الفريقان في (نينوا) على ضفاف دجلة في ديسمبر عام ٦٢٧م[١].

وهكذا صدق ما تنبأ به القرآن الكريم عن غلبة الروم على الفرس في مدته المقررة أي في أقل من عشر سنين، كما هو المراد من كلمة (بضع). وهكذا نرى مدى صدق القرآن الكريم في الأخبار عن النبوءات وأخبار القرون السابقة التي لم يكن لها تاريخ قيد يذكر في سجل البشرية في العصر الحديث.

---

(١) سقوط واندحار الإمبراطورية الرومانية ٧٦/٥ وما بعدها.

ويكفي أن نورد بعض آراء علماء الغرب في القرآن الكريم:

يقول الدكتور موريس الفرنسي (إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبني البشر وإنه كتاب لا ريب فيه).

ويقول هنري ديك استري (إن القرآن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب، ونزوله على محمد دليلاً على صدق رسالته).

ويقول ألكس لوازون (خلف محمد للعالم كتاباً هو آية في البلاغة، وسجل الأخلاق، وهو كتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية).

أمّا واشنطن إيروينج فيقول (إن القرآن يحوي أسمى المبادئ وأكثرها فائدة وإخلاصاً).

ويقول جوته (إن تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية).

ومما قاله ليون (حسب القرآن جلالة ومجداً أن الأربعة عشر قرناً التي مرت عليه لم تستطع أن تخفف ولو بعض الشيء من أسلوبه الذي لا يزال غضاً كأن عهده بالوجود أمس).

أمّا ما قاله الخصم قبل الصديق على من تنزّل عليه القرآن – أي على سيدنا محمد (ﷺ) - فهي أقوال كثيرة ونورد منها:

ما ورد في دائرة المعارف البريطانية ما نصه (كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة وأكثرها نجاحاً وتوفيقاً).

ويقول دينسون عنه (ﷺ) في كتابه (الحركات كأساس للحضارة): (في القرنين الخامس والسادس الميلادي كان العالم على شفا جرف هار من الفوضى، لأن العقائد قد انهارت، وأصبحت المدن الكبرى بعد جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية كادت أن تعود إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ

القبائل تناحرت وتتناحر، لا قانون ولا نظام، وإنما تفرقة وانهيار، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحّد العالم جميعه).

ويقول الفيلسوف كارليل في كتابه (الأبطال):

(وإني لأحب محمداً، لبراءة طبعه من الرياء والتصنع، لم يكن ذليلاً، هو رجل عظيم وربكم، وإلا فما كان ملاقياً من أولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً وإكباراً، وما كان ممكنه أن يقودهم ويعاشروهم، وهم ملتفون حوله يقاتلون ويجاهدون. ولقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة، وعجرفة، وكانوا حماة الأنوف وأباة الضيم، صعاب الشكيمة، فمن قدر على رياضهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستفادوا فذلك والله بطل عظيم).

وفي وسط الاضطرابات التي سادت العالم إبان الحرب العالمية الثانية وتناحر الشعوب، قال الكاتب الإنكليزي برناردشو (إنه لو تولى العالم الأوربي رجل كمحمد لشفاه من علله كافة).ومما نشرته الصحف في الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، خطبة للأستاذ فارس الخوري قال في جانب منها: (إن محمداً أعظم عظماء العالم، ولم يجد الدهر مثله، والدين الذي جاء به كمال وتتمة على الأديان كافة).

وهكذا نرى مدى عظمة الآيات البينات التي نزلت في القرآن الكريم على لسان سيدنا محمد (ﷺ)، فكيف يكفر بها الفاسقون أصحاب العقائد الفاسدة والضمائر الميتة، فنسأل الله عز وجل أن لا نكون من أصحاب العقائد الفاسدة والضمائر الميتة.

٤. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾(١).

تعمل الآية الكريمة على تصحيح عدد من القواعد التي يقوم عليها التصور الإيماني، ولا سيما الذين يكتمون الحق في كل شيء لا في مجال الدين كما فعل

(١) سورة البقرة/ الآية: ١٥٩.

اليهود فهم يعترفون صراحة بمجيء نبي بعد موسى (ﷺ)، ولما جاء النبي محمد (ﷺ) تنكروا له ولرسالته، لذلك لعنهم الله، لأنهم خالفوا عقيدتهم في هذا الأمر، كما أنهم كتموا ما أنزل الله من البينات التي تثبت صدق رسالة سيدنا محمد.

والعجيب أنهم كانوا يبشرون بنبي يأتي بعد عيسى (ﷺ)، ويتحادثون مع الذين كفروا من أهل مكة قبل إسلامهم ويحاولون إقناعهم بهذا الأمر، ولما جاء سيدنا محمد بالرسالة صدموا به، وعموماً أصرّ اليهود على إنكارهم وما يزالون ينكرون رسالة سيدنا محمد (ﷺ) لذلك فهم ينشرون شرّهم في كل بقاع الأرض، لأن اللعنة أصابتهم لكتمهم الحق.

وحسبنا أن نخوض في هذه الصفحات عن الأسباب التي تنكر فيها اليهود لرسالة سيدنا محمد (ﷺ) وللقرآن الكريم.

وأول ما يلقانا هو الآية الكريمة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[1]، وإنها لبداية سعيدة وباهرة أن ينحّى القرآن بها عن نفسه صفة الإقليمية، والعشرية، والطائفية، فجميع الذين لهم إيمان بالله، وبالحق، وبالغيب – يكون القرآن كتابهم.

وهو إذن لم يأت لينقض ما سبقه، بل جاء يكمل ويتم، والذين يؤمنون به، يؤمنون حتماً وضمناً بكل ما سبقه. أمّا الذين يقفون بإيمانهم عند بعض الكتب السابقة لا غير، فأولئك يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

وإذا كانت التوراة والإنجيل – الكتابان اللذان يتحدث عنهما القرآن، لم يكونا ضلالا – إنما كانا رحمة للناس وهدى – فكذلك القرآن الذي جاء يتمم رسالة الكتب السابقة، وهذه لدى القرآن حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن المؤمنين بالكتب السابقة إذا كانوا لا يبخسون إيمانهم، ولا يحرفون الحقيقة أو ينكرونها. بيد أنّ هناك فريقاً سيجمد إيمانه حين يدعى إلى الإيمان بهذا القرآن، والقرآن يرى في هذا الموقف إنكاراً لقضية الإيمان كلها.

---

(١) سورة البقرة/ الآية: ٤.

ثم يلتفت القرآن صوب محمد رسول الله (ﷺ)، فيخبره أن الذين ينكرونهما معا – القرآن والرسول – إنما يستجيبون لجهالات تملى لهم، وأحقاد تستحوذ عليهم، والذي يصدر عن جهل، وتعصب أعمى، وحقد، لا يزيده وضوح الحجة وانتصارها إلا حدوداً وجحوداً.

وبنفس النهج الذي ينهجه القرآن في محاجة أهل الكتاب، يواجه عبدة الأوثان من مشركي مكة وكفارها، هؤلاء الذين لم يدعوا اتهاماً ينال من القرآن في زعمهم إلا اقترفوه، ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[1].

والقرآن يدرك دور الأنانية التي تحرك الناس وتحدد الكثير من وجهاتهم؛ لذلك يسأل كفار قريش لماذا تخاصمون القرآن؛ أخوفاً منه على أمجادكم، فليس لكم مجد بعدما أنزل أليكم الكتاب الذي فيه ذكركم ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2].

وإذا كانت الأمم لا يخلد أمجادها شيء، مثلما يخلدها انتشار لسانها ولغتها، فهذا الكتاب سبيلكم إلى الخلود ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[3]، ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾[4].

على أن القرآن وهو يذكر المشركين بهذا النفع الأدبي الذي سيضيئه عليهم إيمانهم، لم يكن يريد أن يتملقهم أو يحملهم على أن ينشئوا علاقاتهم به وفق هذا النفع وهذا الاعتبار، وإنما كان يذلل لا غير بعض الصعاب التي تلقيها غرائزهم في طريقهم.

---

(١) سورة الأنبياء/ الآية: ٥.

(٢) سورة الأنبياء/ الآية: ١٠.

(٣) سورة يوسف/ من الآية: ٢.

(٤) سورة الشعراء/ الآية: ١٩٥.

هكذا عالج القرآن من تنكروا له من اليهود ومن المشركين، حتى يضيء الحق فمن أراد أن يؤمن فلنفسه ومن لا يؤمن فعليها. لذلك قام القرآن في أقل وقت بأعظم عمل، وأنجز في بضع سنوات المهمة التي عقد عزمه على إنجازها، وجعل حملته ينتشرون في الأرض وفي قلوبهم إيمانهم وقرآنهم في عشرات البلاد والأقطار، وعلى طول الزمان منذ ألف وأربعمائة عام إلى يون الناس هذا، وإلى أيامهم المقبلة، كل كلمة من آياته شريعة، وعقيدة، ومشعل خالد الضياء على طريق القافلة المؤمنة.

ومن أجل أن نعطي الموضوع الذي نحن بصدده حقه رأينا وجوب التعرض لآية من القرآن الكريم على صلة بموضوعنا هي ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾[1]، ذلك أن هذه الآية تمثل وتعمل على نشر الإسلام بين أهله ليزدادوا إيماناً، وبين غير أهله ليعرفوا حقيقة الإسلام السمحاء. إن أول ما نزل في القرآن الكريم هي كلمة ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، إنه أول أمر إلهي نزل في الإسلام، أمر لكل إنسان أن يقرأ لكي يدرك الحقيقة، القراءة قبل الصلاة والصيام، وقبل تفصيل الشرائع، وقبل الكلام عن العقيدة، وانفرد القرآن من بين جميع الكتب المقدسة بأنه ابتدأ بهذه الكلمة وهذا الأمر، وهذا منتهى التشريف للعلم والعلماء، والآية الكريمة حددت نوع العلم المقصود ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ فهو علم بالله ولله، علم خير فاضل، علم للنفع وليس علماً للضرر.

وتوالت بعد ذلك الآيات التي تأمر بالعلم وتحض عليه:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3].

---

(١) سورة العلق/ الآية: ١.

(٢) سورة الزمر/ من الآية: ٩.

(٣) سورة آل عمران/ الآية: ١٨.

فجعل الله أولي العلم إلى جواره مع الملائكة المقربين من حيث قيمة شهادتهم، وهذا منتهى ما يحلم به الإنسان من رفعة المقام؛ أن يذكر مع الله وملائكته ولكنه ليس علماً نظرياً فارغاً، وإنما علم مقترن بالعمل ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[1].

وهذا التكرار على أهمية العلم المقصود لكي يثبت في الذهب بأن لا إيمان إلا بالعمل ومع العمل، وهذا ما قصدته في اتصال موضوعنا حول عدم كتم البينات والهدى، إذ أحببت أن أقول لإخواني المسلمين بأن الإيمان ناقص من غير عمل. لأن الأعمال هي التي تفصح عن دخائل القلوب وفضيلة الفاضل وإحسان المحسن.

فلا يجوز إذن أن يدّعي الإسلام جاهل لا يقرأ ولا يتعلم ولا يستفاد من علمه في حياته مما صام وصلى وحمل المسابح وحوقل وبسمل ورتّل.

والشرق العربي الآن بما فيه من جهل وكسل، فلا هو يقرأ ولا هو يتعلم ولا هو يعمل، وبدل العلم والعمل ولا نرى حولنا إلا الجهل والكسل. وكل واحد يتصور أنه من أهل الجنة لمجرد أن اسمه في بطاقة تحقيق الشخصية مسلم، وإنه يقتني مصحفاً وينسى أن أو كلمة في المصحف هي ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾، وأنه لا يقرأ وإنما يتمدد على المقاهي يتثاءب؛ إذن فعلينا أن نفهم القرآن قبل أن ندعي أننا من أهل القرآن.

إن الشجاعة والشهامة والصدق وقتال الباطل وإحقاق الحق والعمل على عمارة الدنيا بالخير والعدل بين الناس ومحاربة الاستغلال ونصرة الضعيف؛ هي من صميم الدين بل هي الدين ذاته؛ ولا دين ولا قرآن لمن لا يحرك يداً في هذا الأعمال.

فحيثما كان هناك علم وعمل كان هناك عطاء وكانت هناك حضارة، وحسبنا سيدنا محمد (ﷺ)، فلم يكن مبلغاً للآيات وحاملاً للقرآن ومبشراً به فحسب بل كان أول العاملين، وكان أول من يخرج في الغزوات حاملاً سيفه قائداً جيشه، وكان يجوع مع

---

(١) سورة التوبة/ الآية: ١٠٥.

جنوده إذا جاعوا ويعطش معهم إذا عطشوا، وكان أول من يقتحم الأخطار، وفي إحدى الغزوات جرح مع من جرحوا، إنه رمز للعمل الدائب، وهو دليل كل من يبتغي الوصول حيث لا وصول إلا بالعمل، ولا طريق إلى الله إلا على سُلَّم الأعمال.

٥. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[(١)].

إنها لفتة عظيمة تضع العقيدة والإيمان بالله على المحك، وتأخذ الفكر ليصب في حقيقة واحدة هي الموت التي ستواجه كل إنسان، ولكن حقيقة الموت لا تعرف إلا العمل الصالح ونقاء العقيدة الذي يحملها الفرد لكي يفوز بآخرته، أما إن كان من الذين كفروا وماتوا وهم كفار فأولئك هم الذين سيدخلون جهنم، فيا ويلهم على منزلقهم.

لماذا يعرّض الإنسان نفسه إلى هذا المصير الوخيم لأنه عصا الله ورسوله ولم يتدبر آياته، فكان إمّا مشركاً لا يريد أن يهتدي أو مسلماً ضالاً لاهياً لا يريد الهداية، وكل من المشرك والمسلم الضال فضّلا حياتهما الدنيا الفانية ذات الأعمار القصيرة والمصائب الوبيلة على ذاك المصير المخلد الذي يخلّد صاحبه في النار.

إذا أمعنّا النظر في الوجود الذاتي لهؤلاء الذين ماتوا على كفرهم، نرى أن همّ الفرد فيهم كان يعيش ليلبي مستوى متطلبات جسده، فكل همه أن يأكل ويشرب ويضاجع كالبهيمة.

ثم إذا ما لبّى ذلك السعار الجسدي؛ استسلم لسعار آخر هو سعار النفس بين غيرة وحسد وغضب وشماتة ورغبة في السيطرة، وجوع للظهور وتعطش للشهرة واستئثار لأسباب القوة بتكديس الأموال والممتلكات وتربص لاصطياد المناصب.

وأكثر الناس لا يرتفعون عن هذه الدرجة ويموتون عليها ولا يكون العقل عندهم إلا وسيلة احتيال لبلوغ هذه الأسباب؛ والحياة بالنسبة لهذه الكثرة من الناس

---

(١) سورة البقرة/ الآيتين: ١٦١ -١٦٢.

غابة والشعور هو العدوان وتنازع البقاء والصراع، والهدف هو التهام ما يمكن التهامه وانتهاز ما يمكن انتهازه، والفرد من هذه الناس يسلمه مطمع إلى مطمع وهو في ضرام هذه الرغبات لا ينتهي، يعيش حياة السخرة والأشغال الشاقة خضوعاً لحياة همجيّة لا تشبع وأطماع لا مضمون لها ولا معنى ولا قيمة كلها إلى زوال.

وهكذا تعيش هذه النفوس الهائجة وهي مشوشة الفكر، تأخذ لا تعطي، وتكره لا تحب. وهكذا تواجه هذه الفئة مصيرها في الآخرة، مجازاة على أعمالها في الدنيا، ذلك أن أعمال إنسان تحفظ وتسجل بصفة دائمة، وبغير توقف، وللإنسان أبعاد ثلاثة يعرف من خلالها هي: نيته، وقوله، وعمله، وهذه الأبعاد الثلاثة تسجل بأكملها، فكل حرف يخرج من لساننا وكل عمل يصدر عن عفو من أعضائنا – يسجل في الأثير (الفضاء)، ويمكن عرضه في أي وقت من الأوقات بكل تفاصيله.

إن الأفكار تخطر على بالنا، وسرعان ما ننساها، ويبدو لنا أنها انتهت ولم يعد لها وجود، ولكنا بعد فترة طويلة نراها رؤى خلال النوم، أو نذهب نتكلم عنها في حالات معينة دون أن ندري شيئاً مما نقول، وهذه الوقائع تثبت قطعياً أن العقل أو الحافظة ليست تلك التي نشعر ونحس بها فحسب، وإنما هناك أطراف أخرى في هذه الحافظة لا نشعر بها، وهي ذات وجود مستقل وكيان قائم بذاته. ولقد أثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا تحفظ بشكل كامل، ولسنا قادرين على محوها أبداً، ذلك أن الشخصية الإنسانية لا تنحصر بالشعور وإنما هناك اللاشعور، وهذا الأخير يشكل جانباً كبيراً من شخصيتنا، بل هو الجانب الأكبر، ومثل هذا اللاشعور كجبل من الجليد في أعالي البحار، أجزاؤه التسعة تحت الماء، في حين لا يطفو منه إلا الجزء العاشر.

فهذا اللاشعور لا يتغير بتغير الزمن بل يحافظ على الدوافع الحسية، وحتى التأملات الخيالية تكون أزلية في الحقيقة والواقع، وتبقى محفوظة لعشرات السنين، وكأنها لم تحدث إلا بالأمس. إذن فكل ما يخطر على بال الإنسان من الخير والشر،

ينقش في صفحة اللاشعور، فلا يزول إلى الأبد، ويحدث هذا الأمر على رغم الإرادة الإنسانية – طوعاً أو كرهاً.

ولم يستطع علماء النفس في العصر الحديث أن يدركوا ما يكمن خلف هذه العملية من أسباب وعلل، وأية خدمة تؤديها في مصنع الكون، ولكننا لو قارنّا هذا الواقع مقروناً – بالآخرة – لاستطعنا أن نصل إلى حقيقتها بسرعة، ذلك أن هذا الواقع يؤكد بكل صراحة إمكان وجود سجل كامل لأعمال الإنسان في حياته، عندما يبدأ حياته الأخرى، فإن وجوده نفسه سوف يشهد على الأعمال والنيات التي عاشها. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[1].

ولننتقل الآن إلى أقوال الإنسان كيف تحفظ، فجميع ما نلفظه من كلام، حسناً أو قبيحاً، حمداً أو سخطاً، كل ذلك يحفظ في سجل كامل ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[2].

وإمكان وقوع هذا الأمر بحيث لا ينافي العلم الحديث، فنحن نعرف قطعاً أنه عندما يحرك أحدٌ لسانه ليتكلم، يحرك بالتالي موجات في الهواء، كالتي توجد في الماء الساكن عندما نرمي فيه قطعة من الحجر، إنك لو وضعت جرساً كهربائياً في زجاج محكم الإغلاق من كل جانب، ثم تضغط عليه فلن تسمع صورته، رغم أن الجرس بمرأى منك، لأنه لا يرسل الموجات إلى الخارج، فهو مكتوم داخل الزجاجة، وهذه الموجات في الظروف العادية تصطدم بطبلة الأذن، التي تقوم آلياً بإرسال هذه الموجات إلى العقل، فما نفهمه من المعنى يسمى سماعاً. ولقد ثبت قطعياً أن هذه الموجات تبقى كما هي في – الأثير – إلى الأبد، بعد حدوثها للمرة الأولى، ومن الممكن سماعها مرة أخرى، ولكن علمنا الحديث عاجز حتى الآن عن إعادة هذه

---

(١) سورة ق/ الآية: ١٦.

(٢) سورة ق/ الآية: ١٨.

الأصوات، أو بعبارة أصح: عن أن يضبط هذه الموجات مرة أخرى، مع أنها ما تزال تتحرك في الفضاء من زمن بعيد.

ولم يبدِ العلماء اهتماماً خاصاً في هذا المجال، ولكنهم سلموا نظرياً بإمكان إيجاد آلة لالتقاط أصوات الزمن الغابر، كما يلتقط المذياع الأصوات التي تذيعها محطات الإرسال، على أن المسألة الكبرى التي نواجهها في هذا الصدد، ليست في التقاط الأصوات القديمة، وإنما التمييز بين الأصوات الكثيرة الهائلة التي كانت منذ خلق الله الأرض – حتى نتمكن من سماع كل صوت على حدة. وهذه هي مسألة الإذاعة التي وصلنا فيها إلى حل، فإن آلاف المحطات الإذاعية في العالم تذيع برامج كثيرة ليل نهار، وتمر موجات هذه البرامج في الفضاء بسرعة ١٨٦,٠٠٠ ميلاً في الثانية، ومن المعقول بعد فتح المذياع أن نسمع خليطاً من الأصوات لا نفهم منه شيئاً، ولكن هذا لا يحدث، لأن المحطات الإذاعية ترسل موجاتها بأطوال مختلفة فمنها الطويلة ومنها المتوسطة ومنها القصيرة.

إذن العلماء لم ينجحوا في اختراع آلة تفرق بين أصوات الزمن القديم، ولولا ذلك لكنا قد سمعنا تاريخ كل عصر وزمان بأصواته، وربما في المستقبل سوف تخترع هذه الآلة ونتمكن من سماع الأصوات القديمة في المستقبل.

وهكذا لا تبقى (الآخرة) بعيدة عن القياس، وهي القائلة بأن كل ما ينطق به الإنسان يسجل، وهو محاسب عليه يوم الحساب، وهذا الأمر يثبت وجود ملائكة لله غير مرئيين، ينقشون على صفحة الفضاء كل ما ننطق به من كلام، وهو ما يصدق قوله تعالى ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[(١)].

ولننتقل الآن إلى عمل الإنسان بعدما أتممنا الكلام عن نيته وقوله، فالعلم الحديث يؤكد إيمانه بأن جميع أعمالنا – سواء أباشرناها في الضوء أم في الظلام، فرادى أم مع الناس – كل هذه الأعمال موجودة في الفضاء في حالة صور حرارية،

---

(١) سورة ق/ الآية: ١٨.

ومن الممكن في أية لحظة تجميع هذه الصور، حتى نعرف ما جاء به الإنسان من أعمال الخير والشر في حياته، فقد أثبتت البحوث العلمية أن كل شيء حدث في الظلام أم في النور، جامداً أو متحركاً، تصدر عنه حرارة بصفة دائمة، في كل زمان ومكان وحال، وهذه الحرارة تعكس الأشكال وأبعادها تماماً، وقد تم اختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التي تخرج من أي كائن، وبالتالي تغطي صورة فوتوغرافية كاملة للكائن حينما خرجت منه الموجات الحرارية، ومثاله أنني أكتب الآن في مكتبي، وسوف أغادرها بعد ساعة، ولكن الموجات الحرارية التي خرجت من جسدي أثناء وجودي ههنا ستبقى بصفة دائمة، ويمكن الحصول على تسجيل كامل لجلستي في المكتبة في أي وقت بوساطة تلك الآلة، غير أن هذه الآلة لا تستطيع الموجات الحرارية تصويرها إلا لعدد من الأيام، أمّا الموجات القديمة فلا تستطيع هذه الآلة تصويرها لضعفها.

وهكذا نرى أن الموجات الحرارية التي تصدر من أجسادنا تسجل كل حركة وسكون لنا، فلو أنك صفعت فقيراً، أو حملت عبئاً عن أحد الغرباء، فإن جميع تحركاتك تسجل على شاشة الكون، حيث لا يسعك الهرب منها، فأعمالك الماضية وكل ما تقوم به سوف تشاهده وكأنك موجود في مكان الأحداث، وهكذا شأن كل ما يقترفه الإنسان، وشأن الأحداث التي يعيشها، فإن فيلماً كاملاً سوف يعرض يوم القيامة ويوضع بين يدي كل فرد، حتى يصرخ الناس قائلين ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1].

والتفاصيل العلمية التي أوردناها في الصفحات الماضية يتضح منها جلياً أن أجهزة الكون تقوم بتسجيل كامل لكل أعمال الإنسان، فكل ما يدور في أذهاننا يحفظ إلى الأبد في اللاشعور، وكل ما ننطق به من الكلمات يسجل بدقة فائقة في الموجات

---

(١) سورة الكهف/ من الآية: ٤٩.

الهوائية، وجميع ما نقوم به من أعمال سواء في الليل أم النهار يسجل بدقة فائقة في الموجات الحرارية.

إذن فلماذا نبتعد عن رحمة الله تعالى ونسير في الظلمة بدل النور، لماذا يفوتنا العمر ونحن نسرع ونركض وراء نيات فاسدة، وأقوال بغيضة، وأعمال ضالة تؤدي بنا إلى لعنة الله في الآخرة. ولا ضير أن يسعى الإنسان وراء رزقه، ويفكر بنفسه، وينظر لمستقبله ولكن شرط أن لا يخرج عن منهج الله، وأن يكون مدركاً لما يقوم به، فالطيور أيضاً تعمل وبقية الحيوانات أيضاً، ولكنها غير مدركة لأنها حيوانات لا تفكير لها في المستقبل، فالتفكير في المستقبل يتطلب فكراً مدركاً واعياً، وهو من مميزات الإنسان فحسب.

وإن لهذا الإنسان فطرة تميز الخير والشر، والصالح والطالح، والظلم والعدل، ولكن لماذا نرى هذا الإنسان الذي كرمه ربه، يهدر فطرة الله فيظلم بني جنسه، يقتلهم ويشردهم، ويوجه إليهم كل شر مستطاع.

إن الحيوانات لا تظلم فصائلها، فالأسد ليس أسداً في الأسود، والنمر ليس في العرين نمراً، ولكن الإنسان أصبح يفترس إخوانه، حتى الأقربين منهم، ما لا يوجد له مثيل في قانون الغابة. ولا نقول إننا لم نجد أضواء الحق والعدل في التاريخ الإنساني، ولكن الجزء الأكبر من التاريخ يفيض بقصص الظلم والفساد والعدوان، وإن المؤرخ ليصاب بيأس بالغ عندما يرى أن أحداث التاريخ تتعارض مع الضمير الإنساني.

ولبعض العلماء أقوال في هذا المجال ومنها قول فولتير (إن التاريخ الإنساني ليس إلا صورة للجرائم والمصائب).

وقول إدوارد جبن (إن تاريخ الإنسان لا يعدو أن يكون سجلاً للجرائم والحماقة، وخيبة الأمل).

إن هذه الحالة بالغة السوء تنمي عن ضعف في الإيمان، وإن من يقومون بهذه الجرائم لا نستبعد منهم القيام بأية جريمة على هذه الأرض، سواء أمكننا تصورها

أم لا، فإن قوماً يرفعون شعارات العلمانية والجمهورية واللاعنف، يستطيعون في الوقت نفسه أن يرتكبوا أبشع أنواع الطائفية والعنصرية والإقليمية، وأشنع ألوان الدكتاتورية، وأسوأ صور العنف، كما لم يشهده التاريخ، حتى لتأسى لحدوثها السباع المفترسة، والذئاب الكاسرة، والخنازير الوحشية.

هل خلق هذا العالم ليكون مسرحاً للمآسي، والشيطنة، والهمجيّة، والقرصنة، دون أن يلاقي الظالم جزاءه، إذن فليذهب الذين ماتوا واقترفوا هذه الجرائم إلى لعنة الله والناس أجمعين.

٦. ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(١).

ما زلنا في الخط الأول من كتابنا التدرج الإيماني لآيات الترهيب في أمور العقيدة، ونلاحظ الإشارة الكريمة لهذه الآيات إلى وقائع المعركة الدائرة مع أهل الكتاب والجماعة المسلمة في موضوع العقيدة، وما يبذل أعداء الدين من جهد وحيلة ومكيدة وخداع من أجل لبس الحق بالباطل، وبث الريب والشكوك، ونشر الضلال في هذه الأمة، وقد استطاعوا فعلاً في ذلك الزمان تثنية بعض الذين آمنوا بسيدنا محمد (ﷺ) إلى صفوفهم بالخداع والكذب والنفاق الذي كان اليهود عليه مع سيدنا محمد (ﷺ)، إذ كانوا يسلمون في النهار ويكفرون بالليل، وقد جرَّ عملهم هذا بعض الذين آمنوا فردوهم عن دينهم. وكان الأجدر لأل الكتاب أن يؤمنوا إيماناً راسخاً بالرسول الأخير وينصروه، ولكنهم لا وفاء لهم مع عهد الله ومع رسلهم الأولين.

وبهذه المناسبة نرى أن نذكر حقيقة الصلة بين موكب الرسل المتتابعة وهي عهد الله عليهم في أن ينصر السابق اللاحق ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ

---

(١) سورة آل عمران/ الآية: ٨٥.

﴿وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1].وفي ظل هذا العهد الساري يقرر القرآن أن الذي يبتغي غير دين الله – يخرج في الحقيقة عن نظام الكون كله كما أراده الله، فيبدو الذين يخرجون عن إسلام أمرهم كله لله والطاعة له، واتباع منهج الله، يبدو هؤلاء شذاذاً خارجين على نظام الوجود الكبير.

فالآية الكريمة تمثل حقيقة إيمانية ثابتة على مر العصور إلى قيام الساعة، فالإنسان المؤمن الذي يؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر هو المؤمن حقاً وما عداه فهو خارج عن هذه الدائرة الإيمانية والعقيدة السمحاء. وهذا الذي ندد به الله من أعمال أهل الكتاب حينذاك مستمر إلى يومنا هذا، فهذا طريقهم على مدار التاريخ اليهود ثم تبعهم الصليبيون، وخلال هذه القرون الطويلة دسوا ولبسوا في التاريخ الإسلامي وأحداثه ورجاله، ودسوا في الحديث النبوي الشريف، ودسوا في التفسير القرآني، ودسوا في الرجال، فالمئات والألوف كانوا دسيسة على التراث الإسلامي مصنوعين من قبل الصهيونية والصليبية لكي يعملوا على خدمة أعداء الإسلام ويقدموا لهم الخدمات الكبيرة، فكيف النجاة من أصحاب الكيد والدسائس الذين يتربصون بالعالم الإسلامي من كل جانب، ما هذه النفسية المتمردة على الله الواحد الأحد وعلى عباده من الرسل والأنبياء والمؤمنين، ما تركيب الشيطان الذي يأمرهم بهذا التمرد حتى يصلوا إلى محاربة أهل الأرض، والتفنن في إثارة الفتن والدسائس، وأقوى تلك الدسائس هي إعلانهم الإيمان بالله والرسل، وهذه الطريقة الماكرة اللئيمة أوقعت ضعاف النفوس والعقول غير المثبتين في بلبلة واضطراب، خاصة أنهم يرون الناس يعتنقون الدين ثم يرتدون عنه، فيحسب هؤلاء المتمردون أن هناك خللاً في الدين حاشاه فلا يستقر لهم بال. ونحن اليوم نواجه نفس الخدعة في شتى الصور التي تناسب الملابسات والناس في كل جيل، فنجد جيشاً جراراً من العملاء موجه لضرب العقيدة في النفوس في صورة بحث وعلم وأدب وفن وصحافة إلى آخره؛ من أجل توهين العقيدة ونشر الشك فيها، وابتداع تصورات ومثل

---

(١) سورة آل عمران/ الآية: ٨١.

وقواعد للسلوك والشعور تناقض تصورات العقيدة ومثلها، وتزيّن التصورات المبتدعة بما يلائم تصورات العقيدة؛ من أجل سحق القاعدة الخلقية التي تستولي عليها العقيدة، ومن ثم تشويه التاريخ الإسلامي.

ونعود إلى الآية الكريمة ونرى أن الحق يختار كلمة الإسلام لا ليميز بها قوماً على قوم، ولكن لأنها العنوان القديم لتراث إبراهيم، ومفهوم كلمة إسلام تتسع لكل مؤمن في كل زمان؛ فالمسلم كما ورد وصفه في القرآن الكريم: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾[1]. ولهذا، فالقرآن في حواره مع أهل الكتاب يعجب ويتساءل لماذا اختلفوا وتقسّموا إلى يهود ونصارى، أليسوا جميعاً أبناء إبراهيم، لماذا لا يسيرون على هداه، لماذا يقاتل بعضهم بعضاً، ويقول اليهود ليست النصارى على شيء ويقول النصارى ليست اليهود على شيء، ولماذا هذان الفريقان (أهل الكتاب) يجادلون أهل القرآن وهم إخوة.

هل الإسلام أمر طارئ عليهم؟ هل تعصّب الإسلام لنفسه وانطوى عليها؟ أبداً، إنه لكل من يحمل قلباً سليماً ويأتي عملاً صالحاً، ويسلم وجهه لله وهو محسن. بهذا المنطق الصادق الأخّاذ عرض القرآن قضية وحدة الدين؛ ولكن إذا كان الدين واحداً – ففيم إذن كان الأنبياء والرسل، إن القرآن يعلمنا أن الناس تختلف ألسنتهم ومشكلاتهم واستعدادهم، من أمة إلى أمة، ومن جيل إلى جيل، وذلك يقتضي أن يكون لهم هداة يخرجون من نفس البيئة ونفس الصفوف ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[2]. هداة يجلون روح الأمة، ويحملون خصائصها، ويدركون مشاكلها، ويتكلمون لسانها ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[3]. وهؤلاء الهداة والمرسلون مهما

(١) سورة النساء/ من الآية: ١٢٥.

(٢) سورة الرعد/ من الآية: ٧.

(٣) سورة إبراهيم/ من الآية: ٤.

يتتابعون ويكثرون فهم لا يتناقضون أبداً، إنما يركزون جميعاً على حقيقة واحدة هي الحق والخير، لذلك طالب القرآن أتباعه أن يؤمنوا بكل الرسل والأنبياء، وطالب أهل الكتاب أن يؤمنوا بمحمد وبالقرآن؛ واعتبر أي نكوص عن هذا السبيل نكوصاً عن شرعة إبراهيم، كما قرر أن العقيدة تتعرض للخطر الجسيم إذا أنكر صاحبها رسولاً من الرسل، أو كتاباً من الكتب.

هذا هو الجوهر الذي توالت مواكب المرسلين لتنادي إليه عقول الناس وأفئدتهم. ومن بين هذه المواكب كان الإسلام الذي نشأ في شبه الجزيرة العربية، والعرب في هذه الجزيرة كانوا بدواً وهم الغالبية، وكان هؤلاء الأعراب ضعاف الإيمان بعيدين كل البعد عن الدين، وكانوا لا يؤمنون إلا بالتقاليد والشجاعة العمياء، وكانت وثنية العرب فوق ما يستطيع الإنسان أن يتخيله أو يتصوره، إذ كان لكل قبيلة معبودها الخاص بها بل لكل أسرة. أما في بلاد غير العرب، فكانت الاضطرابات على أشدها بين اليهود والنصارى، ثم وسط هذه الاضطرابات يأتي محمد (ﷺ) ليدعوا الناس كافة إلى عبادة الواحد الأحد.

وليس أصدق من (جون لابوم) وهو يصف حالة العالم قبل الإسلام فيقول: (كان جو العالم الأرضي متلبداً، بسبب الاضطرابات الوحشية في كل جهة، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة، أشدهم صيحة في ميدان الحروب والمعارك، والعمل الغالب لهم سلب الأمم والشعوب).

أما توماس كارليل فيقول: (لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وأحيا به أمة خاملة لا يسمع لها صوت ولا حس منذ بدء العالم، فلما أرسل الله لهم محمداً، صار الخمول شهرة، والغموض نباهة، والضعف قوة، والشرارة حريقاً، وشمل نور الإسلام الأنحاء، وضمّ ضوءه الأرجاء، وما هو إلا قرن بعد إعلان هذا الدين حتى أصبح للعرب قدم في الهند وأخرى في الأندلس، وعمّ نوره المعمورة).

ويقول الأستاذ جولد زيهر (إن الإسلام رسم للحياة مثلاً أعلى غير المثل الأعلى للجاهلية، وهذان المثلان لا يتشابهان، وكثيرا ما يتناقضان، فالشجاعة الشخصية، والكرم، والإخلاص، والقسوة والانتقام، كانت أصولاً للعرب الجاهليين. أما في الإسلام فالخضوع لله وحده، والانقياد لأمره، والصبر وإخضاع منافع الشخص ومنافع القبيلة لأوامر الدين، والقناعة وعدم التفاخر وتجنب الكبر والعظمة هي المثل الأعلى للإنسان في الحياة).

ويقدر شاعر الألمان (جوته) لذلك (إذا كان هذا هو الإسلام فنحن جميعاً ندين بالإسلام).

٧. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

هذه لمحة إيمانية ينبه الله المؤمنون عليها من أجل أن يعرفوا طريقهم المستقيم ويدركوا مآرب المشركين تجاههم، ولعل مناسبة هذه الآية هو ما جرى يوم أحد، فعندما انتصر المسلمون في بدر جمع أبو سفيان قريباً من ثلاثة آلاف من قريش وأحلافهم، ثم أقبل بهم نحو المدينة فنزل قريباً من جبل أحد، واستشار رسول الله (ﷺ) أصحابه أيخرج إليهم أم يمكث في المدينة، وكان رأيه (ﷺ) أن يمكث في المدينة إلا أن شبان المسلمين ممن فاتهم موقعة بدر أصروا على الخروج إلى المشركين، فسار النبي على رأيهم فخرج في ألف من أصحابه فأخذ ينظم الصفوف، وأمر الرماة باتخاذ موقعهم من الجبل، فلما ابتدأت المعركة وأحرز فيها المسلمون تقدماً ملحوظاً نزل الرماة إلى الغنائم ظناً منهم أن المعركة انتهت، فالتف عندها المشركون حول أصحاب رسول الله وأحاطوا

(١) سورة آل عمران/ الآيات: ١٤٩ -١٥١.

بهم وتمكنوا منهم. وعندما علم الكفار والمنافقون واليهود في المدينة ما أصاب المسلمين من الهزيمة والقتل أخذوا يثبطون عزائمهم ويخوفونهم عاقبة السير مع محمد، ويصوروا لهم مخاوف القتال وعواقب الاشتباك مع مشركي قريش، وحلفائهم من اليهود، وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبلبة القلوب، وخلخلة النفوس، وإشاعة عدم الثقة بالقيادة، وزعزعة العقيدة بشكل عام.

وهنا النقطة المركزية في هذه الآية – يحذر بها الله الذين آمنوا من طاعة الذين كفروا؛ فعاقبة هذه الطاعة الانقلاب من الإيمان إلى الكفر، فالمؤمن لا بدّ له أن يكافح الكفر والشر والطغيان وأن لا يتقهقر على عقبيه، فالذي لا تعصمه عقيدته وإيمانه منذ اللحظة الأولى من طاعة الكافرين والاستماع إليهم والثقة بهم، هذا يعني التنازل عن العقيدة والعياذ بالله.

إن أية فكرة أو عقيدة أو منظمة، إنما تحيا وتعمل وتؤثر بمقدار ما تحمل من قوة وسلطان قاهر يعتمد على العدل والحق، وعندها يمنحها الله القوة والسلطان الحقيقيين، أمّا إذا كانت تعتمد على الباطل، فهي زائفة، مهما بدا فيها من قوة والتماع، وهذه الصورة من خصال المشركين يضعون مع الله آلهة أخرى ولا يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين، ويضعون لهم أنظمة دنيوية بعيدة عن شرع الله، فهم بذلك لا يؤثرون في مجرى الحياة إلا خراباً ودماراً. فلا ينبغي أن يسير الذين آمنوا بمحاذاة اليهود والذين أشركوا لئلا يعيشوا حياة البؤس والشقاء والهلاك ويخرجوا عن قاعدة التوحيد. فالإيمان جذور لغريزة إنسانية، تأتي من إحساس البشر إلى حاجتهم إلى عقيدة؛ ففكرة (الله خالقي وأنا عبده) منقوشة في اللاشعور الإنساني، وهي ميثاق سري مأخوذ على الإنسان منذ يومه الأول، وهو يسري في كل خلية من خلايا جسمه، وعندما يفقد الإنسان هذا الشعور يحس بفراغ عظيم، وتطالبه روحه أن يبحث عن إلهه في أعماق نفسه. وليس الاهتداء إلى معرفة الله غير الوصول إلى المنبع الحقيقي للفطرة الإنسانية، والذين لا يهتدون إلى المعرفة يقبلون على أشياء أخرى. فحين يقدم

الإنسان طاعته إلى غير الله في موضوع الدين فهو يشرك بمن يستحق وحدة العبادة ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1]. والظلم أن تضع الشيء في غير موضعه، فلو تريد أن تتخذ من غطاء (الوعاء) قبعة فهو ظلم، والإنسان عندما يميل إلى غير الله لملء فراغه النفسي ويتخذ من غير الله ملجأً له، فهو ينحاز عن مكانه الصحيح، ويتخذ من غريزته أسوأ أسباب الظلال. ولما كانت هذه الغريزة فطرية، فإنها تظهر دائماً في صورتها الطبيعية متجهة إلى الله، ولكن المجتمع، وأحوال البيئة، يعطيان هذه الغريزة اتجاهاً مغايراً، فتبدأ الشكوك تساور الإنسان في أول الأمر، ولكنه سرعان ما يتخلص من هذه الشكوك عمداً أو عفواً.

إذن فطرة الإنسان تدعوه إلى الرجوع لله حتى يملأ فراغه وإذا لم يركع لله فإنه سيركع لآخرين كثيرين لأن تدعوه إلى ذلك عندما ينكر وجود الله، وليست الحقيقة أن يتخذ الإنسان آلهة آخرين عن الكفر بالله، من أجل أن يسكت غريزته، بل إن الذين يتخذون من غير الله إلها محرومون من الاستقرار والطمأنينة، كالطفل اليتيم الذي يحاول أو يتخذ من مصنوعات بلاستيكية أمّاً له. وكل ملحد، مما بدا له أو للآخرين، إنه ناجح، فإنه يتعرض في حياته لمواجهة لمحات، يضطر إزاءها أن يفكر فيما إذا كانت الحقيقة التي قبل بها مصطنعة وزائفة.

وهو هو الشعور بعدم الطمأنينة الذي يسيطر على أرواح الذين يكفرون بالله، ويخيل إليهم في غمرة الملذات المؤقتة، والأعمال الدنيوية الشاغلة – أنهم قد ظفروا بالاستقرار، ولكنهم لا يلبثون أن يحسوا مرة أخرى بأنهم محرومون من الطمأنينة والسعادة والاستقرار. وهذه الحالة التي تمثل انعدام الطمأنينة والاستقرار، لدى القلوب المحرومة من رحمة الله ليست مسألة أيام هذه الدنيا وسنيها، وإنما هي أهم من ذلك بكثير.

---

(١) سورة لقمان/ من الآية: ١٣.

إنها مسألة أزلية، تتمثل فيها آثار الحياة المعتمة الحالكة، التي يقف على حافتها هؤلاء الأصحاب، إنها البادرة الأولى لحياة الخنق الأبدية، التي سوف يواجهونها بعد موتهم دون شك. إنها أجراس التنبيه الأولى في حياتهم، تنذرهم بالأحوال الرهيبة، والظروف المروعة التي سوف تمر عليها أرواحهم في الجحيم الذي لا بد لهم أن يخلدوا فيه.

إن الحياة تتطلب معايير وقيماً في سبيل إقامتها، على أن تكون هذه المعايير حقيقة لا مصطنعة أو بعيدة عن الدين، وهذا ما يقوم به الملحدون يحاولون البحث عن معايير مجردة من الدين في حياتهم. فمثلاً على ذلك يعلق أهل الغرب على المحطات وعربات القطارات لافتات كبيرة تقول (إن السفر بدون تذكرة جريمة إجتماعية) ولكن نسبة السفر بدون تذاكر تزداد ولا تقل، وذلك يثبت أن عبارة جريمة إجتماعية غير كافية لتحريك ضمير الفرد والحفاظ على النظام.

إنهم يبذلون جهوداً للتنفير من الجريمة، عن طريق الصحافة، قائلين (الجريمة لا تفيد) ولكن نسبة الجريمة تزداد يوماً بعد يوم، وهذا دليل على أن عواقب الجريمة في الدنيا ليست رادعة، حتى تمنع المجرمين من القيام بجرائمهم.

إنهم يكتبون في كل عربة من عربات القطار (أن القطارات ملك للشعب وإلحاق أي ضرر بها جريمة ضد الشعب) ولكن المسافرين يكتبون على جلود كراس الكتاب، ويحطمون الزجاج، وربما يثورون فيشعلون النار في القطارات.

إن كبار الزعماء والسياسيين يدعون في خطبهم؛ إن استغلال الوسائل الحكومية لصالح الأغراض الفردية خيانة في حق الشعب والدولة، ولكن المشروعات الكبرى تفشل في تحقيق أهدافها، لأن النسبة الكبرى من الميزانيات المقدرة تأخذ طريقها إلى جيوب المسؤولين القائمين بأمر هذه المشروعات بدلاً من إنفاقها في مكانها الصحيح. وهكذا نرى اختفاء المعايير والقيم من الحياة الإلحادية؛ تلك الحياة التي ذهبت بركب البشرية إلى الوحل، وقد ضللتها عن طريقها، ولا حل لهذه الأزمة

إلا بالرجوع إلى الله، والتسليم بأهمية الدين للحياة، فهو الأساس الوحيد الذي يساعد على النهوض بالحياة البشرية على خير وجه. إن معنى الحصول على السعادة المادية هو أن يسعى الإنسان بكل قواه إلى تحقيق أمانيه، ولكن تحقيق الأهداف الشخصية في هذا العالم المحدود، لا طريق إليه دون التأثير على الآخرين، ولذلك عندما يسعى الفرد الإلحادي إلى تحقيق أمانيه يتحول إلى رزء بالنسبة للآخرين، فأمنية الفرد تدمر أماني المجتمع، ثم يتحول ذلك المجتمع إلى وبال على مجتمعات أخرى.

إن العالم الحديث يعاني من مشكلة لم يجربها الإنسان طوال تاريخه هي مشكلة (جرائم الأطفال) التي أصبحت جزءاً من المجتمع الحديث؛ من أين يأتي هؤلاء المجرمون الصغار إنهم ضحايا السعادة المادية، أطفال يتامى أو لا يعرف آباؤهم لا يقدر المجتمع أن يهيئ لهم الظروف الملائمة للتنشئة الطبيعية، فهم أحرار من كل قيد، وهم ثائرون على المجتمع الذي أنجبهم، فتبدأ الجرائم القذرة التي كانوا ثمرتها؛ إذن فأكثرية المجرمين الأطفال غير البالغين تخرج من أنقاض أسر محطمة أصلاً.

لقد حاول العلم الحديث أن يغذي كل الجوانب المادية في الجسم الإنساني، ولكنه فشل في تغذية الشعور، والأماني، والإرادة، وكانت حصيلة ذلك جسماً طويل القامة ممتلئ النواحي، ولكن الجانب الآخر من الجسم وهو أصل الإنسان يعاني من أزمات لا حصر لها. لقد تقدم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودها في هذا العصر، وبدأ الأطباء يقولون (إن العلم يستطيع القضاء على أي مرض، غير الموت والشيخوخة) ولكن الأمراض تكثر وتتشعب، وتنتشر بسرعة كبيرة، ومنها الأمراض العصبية.

ولقد أكدت إحصائية أن ثمانين في المائة من مرض المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضاً ناتجة عن الأعصاب، ويقول علماء النفس: إن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية الكراهية، والحقد، والجريمة، والخوف، والإرهاق، واليأس، والترقب،

والشك، والانزعاج من البيئة، وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله.

إن هذا الإيمان بالله يمنح الإنسان يقيناً جباراً، حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب، فهو يجاهد في سبيل هدف سام أعلى، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة. إن الإيمان بالله يعطي محركاً هو أساس سائر الأخلاق الطيبة، ومصدره قوة العقيدة، هذه العقيدة هي سر مخزن الصحة النفسية الموفورة، التي يستمتع بها أصحابها، وأية نفسية محرومة من هذه العقيدة فلن تنتهي إلا بأقسى الأمراض وأعتاها.

ومن شقوة الإنسان أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود في الكشف عن هذه الأمراض النفسية والعصبية الجديدة، ولكنهم يخفقون في كل مرة. وإلى ذلك أشار أحد العلماء المسيحيين قائلاً (إن علماء الطب النفسي يبذلون كل جهودهم في كشف أسرار القفل الدقيقة الذي سوف يغلق علينا كل أبواب الصحة). فالأجسام تحت الأثواب البراقة أحوج ما تكون إلى الهدوء والسعادة، والأبنية الضخمة تسكنها قلوب محطمة، والمدن المتلألئة ببريق الحضارة هي بؤر الجرائم، ومصانع المصائب، والحكومات الجبارة مصابة بالدسائس الداخلية وعدم الشفقة، والمشاريع الضخمة تبوء بالفشل نتيجة لخيانة القائمين بها، لقد أصبحت الحياة غير مرغوب فيها رغم التقدم المادي الهائل، وكل هذا وذاك يرجع إلى الأساس الذي هيأه لنا خالقنا ومالكنا إلى حرمان الإنسان من نعمة الإيمان بالله، لقد حرمنا أنفسنا من المنبع الصافي الذي ينير قلوبنا وأرواحنا.

وإن سبب الأمراض النفسية التي أشرنا إليها حقيقة واضحة جلية اعترف بها علماء النفس، ولقد لخص العالم النفسي الشهير البروفيسور (يانج) تجاربه في الكلمات التالية: (طلب مني أناس كثيرون، من جميع الدول المتحضرة، مشورة لأمراضهم النفسية، في السنوات الثلاثين الأخيرة، ولم تكن مشكلة أحد هؤلاء المرضى

الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم إلا الحرمان من العقيدة الدينية، ويمكن أن يقال: إن مرضهم لم يكن إلا أنهم فقدوا الشيء الذي تعطيه الأديان للمؤمنين بها في كل عصر، ولم يشفَ أحد من هؤلاء المرضى إلا عندما استرجع فكرته الدينية). وإنها لكلمات جلية ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾[1].

وهذا الأستاذ كريسي موريسي (رئيس أكاديمية نيويورك) يقول: (إن الاحتشام، والاحترام، والسخاء، وعظمة الأخلاق، والقيم والمشاعر السامية، وكل ما يمكن اعتباره نفحات إلهية لا يمكن الحصول عليها من طريق الإلحاد؛ فالإلحاد نوع من الأنانية، ولسوف تقض هذه الحضارة بدون العقيدة والدين، وسوف يتحول النظام إلى فوضى، وسوف ينعدم التوازن، وضبط النفس، والتمسك، وسوف يتفشى الشر في كل مكان، إنها لحاجة ملحة أن نقوي صلتنا وعلاقتنا بالله).

٨. ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[2].

هذه الآية الكريمة تشير إلى حادثة حدثت على عهد رسول الله (ﷺ) حيث ارتد اليهودي (بشير بن أبيرق) والتحق بالمشركين بعدما كان في صفوف المسلمين، فالحادثة خاصة ولكن النص عام، وهو حلقة من حلقات المنهج الإيماني القويم في إعداد الجماعة التي تقود البشرية من خلال معالجة مواضع الضعف البشري ورواسب المجتمع الجاهلي.

فمن يشاقق الرسول في أمر إيماني، أي ما يتعلق بالإيمان يوليه الحق ما تولى ويصله جهنم، لماذا؟ لأن الله غني عن الشرك وأهله، يقول الله في الحديث القدسي ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته

---

(١) سورة ق/ من الآية: ٣٧.

(٢) سورة النساء/ الآية: ١١٥.

وشركه))[1].فالله غني عن الشرك والكفر ولكن يريد أن يقيم منهجاً سليماً قائماً على عدم الشراكة، لأن الشراكة أو ما تحتاجه هو أن يشهد ضعفاً من شريك، واحتياجاً لغريب، والله غني عن هذه المسألة لأنه واحدٌ أحدٌ فردٌ صمد.

ولا تمثل هذه الآية حادثة اليهودي فحسب بل يأخذ النص عوالم أخرى من الشقاق تمتد إلى يومنا هذا، الشقاق الذي أصبح سمة بارزة في عصرنا أدت إلى اختلال التوازن. فالشقاق الذي حصل على عهد رسول الله (ﷺ) تمثل بأن رجلاً كاليهودي السالف الذكر أو غيره أسلم ثم ارتدّ عن إسلامه لغاية في نفسه أو ضعف بشري أو أصابته راسبة من رواسب الجاهلية.

أمّا إنساننا الحاضر فلماذا يشاقق الرسول الكريم (ﷺ)، والإسلام والعلم الحديث يبرهن يوماً بعد يوم صدق رسالة سيدنا محمد (ﷺ) من خلال الكشوف العلمية في الكون، وذلك النظام العجيب الذي اشتمل عليه، وأسراره الدقيقة، والذي لا يمكن تفسير ذلك كله إلا بأنه قد خلقته قوة لا حدود لها، وإنها قوة واعية، وإننا في الكون موجودين ما دمنا نفكر، وما دمنا نتألم ونفرح ونحزن، فهذا الإحساس والشعور دليل لكل شخص بأنه موجود في الكون، وعلى أنه يملك وجوده الذاتي.

إن الإنسان العادي يؤمن على كل حال بأن له وجوداً، وبأن للكون أيضاً وجوداً، وعلى هذا الأساس من العلم والإيمان تقوم جميع ألوان النشاط العلمي والحيوي. فإذا آمنا بوجود الكون فلا بدّ أن نؤمن بإله هذا الكون منطقياً، إذ لا معنى أن نؤمن بالمخلوق ونرفض وجود الخالق، ونحن لا نعلم شيئاً جاء إلى الوجود من العدم، دون أن يخلق، فكل شيء مهما بلغ حجمه عظم أو صغر، وراءه علة، فكيف بنا نؤمن بأن كوناً عظيماً مثل كوننا جاء إلى الوجود ذاتياً دون خالق.

يدلنا علم الفلك على أن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار في الدنيا كلها، منها ما هو أكبر بقليل من الأرض، ولكن أكثرها

---

(١) رواه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة.

كبير جداً، حتى يمكن أن تضع في واحد منها ملايين النجوم في مثل حجم الأرض التي نعيش عليها، ولسوف يبقى فيه مع ذلك مكان خالٍ.

إن كوننا هذا فسيح جداً، ولكي نفهمه نتصور طائرة خيالية تسير بسرعة (١٨٦,٠٠٠) ميلاً في الثانية الواحدة، وإن هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن، إن هذه الرحلة سوف تستغرق (ألف مليون سنة)، ولكن هناك مسألة فالكون دائم التوسع، حتى أنه بعد فترة من الزمن تصبح سعة الكون ضعفين عن الآن، وهكذا لا تستطيع الطائرة الخارقة بسرعتها أن تكمل رحلتها حول الكون أبداً.

عندما تكون السماء صافية نستطيع أن نرى بالعين المجردة خمسة آلاف من النجوم، ولكن هذا العدد يتضاعف إلى أكثر من مليوني ضعف عندما نستخدم تلسكوباً عادياً، أما إذا استخدمنا تلسكوباً من المراصد العالمية فإننا سوف نرى بلايين من النجوم.

إن الفضاء الكوني فسيح جداً، تتحرك فيه كواكب لا حصر لها، بسرعة خارقة، بعضها يواصل رحلة وحده، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى، ومنها ما يتحرك بشكل مجموعات، وهذه الكواكب على كثرتها يواصل كل واحد منها السفر على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى.

وأقرب حركة منا هي حركة القمر التي تبعد عنا (٢٤٠,٠٠٠) ميلاً، وهو يدور حول الأرض، ويكمل دورته في مدة تسعة وعشرين يوماً ونصف اليوم، وكذلك تبعد أرضنا عن الشمس (٩٣,٠٠٠,٠٠٠) ميلاً، وهي تدور في محورها بسرعة ألف ميل في الساعة، وكذلك توجد تسعة كواكب مع الأرض، وكلها تدور حول الشمس بسرعة فائقة، وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قمراً أخرى، وتوجد غير هذه الكواكب حلقة من ثلاثين ألفاً من النجيمات، وآلاف النجوم ذوات الأذناب، وشهب لا حصر لها، وكل هذه تدور حول الشمس التي هي أكبر من الأرض (١,٢٠٠,٠٠٠) مرة. ثم إن هذه الشمس ليست ثابتة أو واقفة وإنما تدور بسرة (٦٠٠,٠٠٠) ميل في

الساعة مع تلك الكواكب والنجيمات، وهناك آلاف من الأنظمة غير نظامنا الشمسي هذا، وكلها تدور، والمجرة التي يقع فيها نظامنا الشمسي تدور على محورها بحيث تكمل دورة واحدة في (٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة ضوئية.

ويقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من المجرات، وبلايين النجوم وملايين الأنظمة الشمسية. وإن هذا الكون يتسع شيئاً فشيئاً، وشمسنا تدور حول مجرتها، وهي تتباعد عنها بمقدار اثني عشر ميلاً كل ثانية، وتتبعها في هذه العملية جميع النجوم الداخلة في النظام الشمسي، وتحدث هذه الحركة المدهشة تبعاً لنظام وقواعد محكمة، بحيث لا يصطدم بعضها ببعض، ولا يحدث اختلاف في سرعتها.

إن حركة الأرض حول الشمس منضبطة تمام الانضباط، بحيث لا يمكن أن يحدث أي نظير في سرعة دورانها، حتى بعد مرور قرن من الزمان، وهذا القمر الذي يتبع في حركة الأرض، يدور في تلك فلك منضبط، مع تفاوت يسير جداً، يتكرر كل ثمانية عشر عاماً ونصف العام، بدقة فائقة، وتلك هي حال جميع الأجرام السماوية.

ويرى علماء الفلك أن مجرات النجوم يتداخل بعضها في بعض، فتدخل مجرة تشمل على بلايين النجوم في مجرة مثلها، ثم تخرج دون أن يحدث أي تصادم بين نجوم المجرتين. وإن العقل ينظر إلى هذا النظام العجيب، والتنظيم الدقيق الغريب، لا يلبث أن يحكم باستحالة أن يكون هذا كله قائم بنفسه، بل هناك قوة عظيمة مدبرة تهيمن عليه.

إن هذا النظام الذي يوجد في العوالم الكبرى، نجده في صورته الكاملة – في أصغر عالم عرفناه، فنحن نعرف أن الذرة أصغر عالم، وأنها قد تناهت في صغرها حتى لا يمكن أن نشاهدها بالمنظار الذي يكبر الأشياء، فهي بناء على ذلك لا شيء، ولكن هذه الذرة تحتوي على نظام الدوران العجيب في النظام الشمسي، فالذرة اسم المجموعة من الإلكترونات غير متصل بعضها ببعض وإنما يوجد بينها فراغ كبير

نسبياً، إذن فالذرة غير مرئية في الغبار ومع ذلك فإن حجم دوران الإلكترون داخلها يبلغ حجم كرة قدم قطرها ثمانية أقدام.

والإلكترون الذي هو الجزيء السلبي في الذرة – يدور حول البروتون الذي هو الجزيء الإيجابي فيها، وهذه الجزيئات التي لا حقيقة لها أكثر من نقط وهمية سابحة في الشعاع، تدور حول مركزها، بنفس النظام الذي تتبعه الأرض في مدارها حول الشمس، بحيث لا يمكن تصور سرعة الإلكترون لسرعة دورانه، وذلك لأنه يدور حول مداره بلايين المرات في الثانية الواحدة.

هذا النظام الذي يستحيل قيامه بنفسه، ولا طريق إلى مشاهدته، ولا يمكن تفسير عمله داخل الذرة بغير العلم، وقد تبناه العلم فعلاً وآمن به، فلماذا لا نؤمن بالله الذي أنشأ هذا النظام. إننا نتحير إذا رأينا النظام المعقد للهاتف النقال، ونتحير إذا وجدنا مكالمة من أقصى بقاع الأرض إلى أقصاها الآخر تتسم في بضع ثواني، فما بالنا بنظامنا العصبي، وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيداً، إن ملايين الأخبار تجري على أسلاك نظامنا العصبي، وهذه الأخبار هي التي توجه القلب في تدفقها، وفي حركتها، وتتحكم في حركات الأعضاء المختلفة، وفي الحركات الرئوية، ولو لم يكن هذا النظام موجوداً في أجسامنا لصارت الأجسام وأعضاؤها بشكل مبعثر ولسلك كل عضو مسلكه من غير انضباط.

ومركز هذا النظام هو المخ، حيث توجد في المخ ألف مليون خلية عصبية، ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر في سائر الجسم تسمى بالأنسجة العصبية، وفي هذه الأنسجة يجري نظام الإرسال والتلقي بسرعة سبعين ميلاً في الساعة، وبوساطة هذه الأنسجة نسمع ونرى ونتذوق ونباشر أعمالنا. وتوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية، وفي كل عين توجد مائة وثلاثون مليوناً من الخلايا الملتقطة للضوء، وتقوم بمهمة إرسال المجموعة التصورية إلى المخ، وهناك شبكة من الأنسجة الحسية على امتداد جلدنا، فإذا قربنا إلى الجلد شيئاً حاراً، فإن ثلاثين ألفاً من الخلايا

الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فوراً إلى المخ. وإذا قربنا إلى الجلد شيئاً بارداً، فإن ربع مليون من الخلايا التي تلتقط الأحياء الباردة تحس به، وعندئذٍ يمتلئ المخ بأثرها، ويرتعد الجسم، وتتسع الشرايين الجلدية، فيسرع مزيداً من الدم إليها ويزودها بالحرارة، وإذا أحست هذه الخلايا بحرارة شديدة، فإن مخابرات الحرارة توصلها إلى الدماغ، وحينئذٍ تفرز ثلاثة ملايين من العدد العرقية – تلقائياً – عرقاً بارداً إلى خارج الجسم.

والنظام العصبي يشتمل على عدة فروع، منها الفرع المتحرك ذاتياً، ويقوم بأعمال تحدث ذاتياً في الجسم، كعملية الهضم والتنفس وحركات القلب، ويندرج تحت هذا الفرع نظامان، أحدهما (النظام الخالق للحركة) والآخر هو (المناع للحركة)؛ والنظام المانع للحركة يقوم بعملية المقاومة والدفاع، فلو ترك الأمر للنظام الخالق للحركة لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبها، ولكن هناك حالات يزداد فيها أحد النظامين، فالنظام الخالق للحركة يتغلب عند الضغط واحتياج القلب إلى قوة مسعفة، والنظام المانع للحركة يتغلب عند النوم، فيسود السكون جميع الحركات الجسمية.

إن أحسن الآلات من صناعة الإنسان لا يمكن أن تقف أمام النظام العجيب الذي يوجد في الكون، ولهذا بدأ الإنسان يقلد الطبيعة ويولي اهتماماً خاصاً للسير بالآلات وفق هذا النظام، واليوم يسلك النظام البيولوجي سبلاً كثيرة للحصول على معلومات تساعد في حل مسائل الهندسة. ومن أمثلة استغلال نظام الطبيعة في الصناعة آلة التصوير، وهي في الواقع تقليد ميكانيكي لعين الإنسان، فعدسة الكاميرا هي كالشبكة الخارجية للعين، والحجاب الحاجز هو قزحية العين، والفيلم الذي يتأثر بالضوء إنما هو شاشة العين التي توجد فيها خطوط وأشكال مخروطية ترى الأشياء معكوسة، ولن يجرؤ أي إنسان على وجه الأرض أن يدعي أن آلة التصوير جاءت من نفسها، دون اختراع إنساني، ولكن الكثيرين من العلماء (الملحدين) يعتقدون أن

العين جاءت عن صدفة.مثال آخر، فلقد ابتكرت إحدى الجامعات في موسكو آلة نموذجية لالتقاط وقياس (الذبذبات تحت الصوتية)، وهذه الآلة تستقبل وتلتقط أخبار الفيضانات والزلازل والكوارث قبل حدوثها بساعات، فمن أين جاءت فكرة هذه الآلة إلى العلماء، لقد استنبطوه من سمكة قنديل البحر، الذي قلد العلماء أعضاءها، وهي شديدة الحساسية، حتى أنها لتحس بالذبذبات تحت الصوتية.

فإذا كانت هذه الأجهزة التي قلدها الإنسان من الطبيعة قد جاءت بعقل إنساني مدبر، فمن المستحيل أن نتصور نظام الكون الذي هو أشد تعقيداً قد جاء بنفسه من غير مدبر، فالحقيقة أن العقل الإنساني لا يملك أساساً عقلياً لإنكار الإله.

إن هذا الكون قائم على التوازن الدقيق، والتناسب إلى الحد الذي لا يمكن تصوره، حتى قال أحد المفكرين (إن من الممكن أن نسأل أي رجل مؤمن بالله أو ملحد، نسأله أن يثبت كيف يمكن أن يكون هذا التوازن بصالحه، إذا كان الكون قد وجد بمحض الصدفة).

ومن أمثلة هذا التوازن أرضنا، فأرضنا في ضخامتها كما تبدو لنا لا تساوي ذرة من هذا الكون العظيم، ولو أن حجمها كان أقل أو أكثر مما هي عليه الآن لاستحالت الحياة فوقها، فلو أنها كانت في حجم القمر مثلاً، لكانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية، ونتيجة لذلك فإنها لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها كما هي الحال في القمر، الذي لا يوجد فيه، ولا يحوطه غلاف هوائي، لضعف قوة الجاذبية فيه، وانخفاض الجاذبية في الأرض إلى مستوى جاذبية القمر سيترتب عليه اشتداد البرودة ليلاً حتى يتجمد كل ما فيها، واشتداد الحرارة نهاراً حتى يحترق كل ما فيها. وكذلك يترتب على نقص حجم الأرض إلى مستوى حجم القمر أنها لن تمسك مقداراً كبيراً من الماء، فلا يبقى شيء اسمه مواسم على سطح الأرض.

أمّا إذا كانت الأرض ضعف حجمها الحالي لتضاعفت جاذبيتها الحالية، وحينئذٍ ينكمش غلافها الجوي الذي هو على بعد خمسمائة ميل إلى ما دون ذلك،

وسيترتب على هذا أن يزيد تحمّل كل بوصة مربعة خمسة عشر رطلاً إلى ثلاثين رطلاً من الضغط الجوي، وهو ضغط يؤثر أسوأ الأثر على الحياة. ولو تضاعف حجم الأرض أكبر من ذلك وصارت بحجم الشمس مثلاً، لزادت القوة الجاذبية فيها عن الآن مائة وخمسين مرة، ولاقترب غلافها الهوائي منها إلى أربعة أميال بدل من خمسمائة ميل، ولارتفع الضغط الجوي بمعدل طن واحد على كل بوصة مربعة، أي أن يصير الحيوان الذي يزن رطلاً واحداً تحت الكثافة الهوائية المثالية خمسمائة رطل، كما يهبط حجم الإنسان حتى يصير بحجم فأر، وعندما يستحيل وجود العقل في الإنسان، لأنه لا بدّ للعقل الإنساني من أنسجة كثيرة في الجسم.

نحن قائمون على الأرض ظاهراً، ولكن الأصح أن نقول نحن ملقون على رؤوسنا؛ ولتوضيح ذلك نقول: إن الأرض مثل كرة معلقة يسكنها الإنسان، فسكان أمريكا سيكونون تحت سكان الصين، وسكان الصين سيكونون تحت أقدام سكان أمريكا. فأرضنا هذه ليست ثابتة، وإنما هي تدور بسرعة مقدارها ألف ميل في الساعة، وذلك يجعل وضعنا فيها أشبه بحصاة وضعت على محيط عجلة تدور بسرعة، يوشك أن تقذف في الفضاء، ولكن الأرض لا تقذفنا، بل نحن مستقرون عليها، فكيف تمسكنا وهي تدور بهذه السرعة.

إن في الأرض جاذبية وضغط هواء مستمران يمسكاننا فوقها بنسبة معلومة؛ وضغط الهواء الذي يكون على كل بوصة مربعة ما يقرب من ١٥ رطلاً معناه أن كل إنسان يتحمل ما يقرب من (٢٢٨) رطلاً من الضغط الجوي على جسمه، ولكنه لا يحس به، لأن الهواء يضغطه من كل ناحية. إن الأرض تتم دورة واحدة حول محورها، في كل أربع وعشرين ساعة ومعنى ذلك أنها تسير حول محورها بسرعة ألف ميل في الساعة، فإذا فرضنا أن هذه السرعة انخفضت إلى مائتي ميل في الساعة، لطالت أوقات ليلنا ونهارنا عشر مرات، بالنسبة إلى ما هي عليه الآن، ويترتب على ذلك أن تحرق الشمس بشدة حرارتها كل شيء فوق وجه الأرض، وما بقي بعد ذلك

ستقضي عليه البرودة في الليل.وهذه الشمس التي نعدها اليوم وسيلة حياتنا، تبلغ درجة حرارتها ما يقرب من ٩٣,٠٠٠,٠٠٠ درجة، وهذا الأمر لا يتغير أبداً بزيادة أو نقص، وفي ذلك عبرة عظيمة لنا، لأنه لو نقص واقتربت الشمس من الأرض بمقدار النصف مثلاً من الفاصل الحالي، فسوف يحترق الورق على الفور من حرارتها، أمّا إذا كانت الشمس أبعد مما هي عليه الآن بمقدار النصف فإن البرودة الشديدة التي تنجم عن هذا البعد، سوف تقضي على الحياة في الأرض.

ثم إن هذه الأرض دائرة في الفضاء، وهي تؤدي عملها بزاوية (٥٣٣) درجة الأمر الذي تنشأ عنه المواسم، ويترتب عليه صلاحية أغلب مناطق الأرض للزراعة والسكنى، فلو لم تكن الأرض على هذه الزاوية لغمر الظلام القطبين طول السنة، ولسار بخار الماء شمالاً وجنوباً، ولما بقي على الأرض غير جبال الثلج، وفيافي الصحراوات، وهكذا تنجم مؤثرات كثيرة تجعل الحياة على ظهر الأرض منخلية ولو كانت قشرة الأرض أكثر سمكاً، بمقدار عشرة أقدام من سمكها الحالي، لما وجد الأوكسجين، لأن القشرة الأرضية عندها ستمتص الأوكسجين، وكذلك لو كانت البحار أعمق بضعة أقدام أكثر من القاع الحالي لانجذب ثاني أوكسيد الكاربون والأوكسجين، ولاستحال وجود النباتات على الأرض، فضلاً عن الحياة.

ولو كان الغلاف الهوائي ألطف مما هو عليه الآن، لاخترقت النيازك كل يوم غلاف الأرض الخارجي، ولسقطت على كل بقعة من الأرض وأحرقتها، فهذه النيازك تواصل رحلتها بسرعة أربعين ميلاً في الثانية، ونتيجة لهذه السرعة العظيمة فإنها ستحرق كل شيء يمكن أن يحترق على الأرض، حتى تصبح الأرض غربالاً في وقت قياسي، فالغلاف الهوائي يقينا من هذه الشهب، لأن سرعتها أكثر من سرعة طلقة البندقية تسعين مرة، فالأشعة الشمسية ذات الأهمية الكيمياوية لا تخترق الغلاف الجوي إلا بالقدر الموزون الذي يكفي لحياة النبات، وإيجاد الفيتامينات والقضاء على الجراثيم، ... إلخ.

إن هذا التوازن للكميات، المحتاج إليها، عجيب جداً، فالغلاف الذي فوق الأرض مكون من ستة غازات، منها ٧٨% النيتروجين، ٢١% الأوكسجين، والغازات الأخرى توجد بكميات قليلة، فلو كانت نسبة الأوكسجين ٥٠% أو أكثر، لزادت نسبة الاحتراق، ولو انخفضت هذه النسبة فأصبحت ١٠%، لكان من الممكن على مدى قرون أن تعتاد الحيوانات الحياة مع انخفاض نسبة الأوكسجين إلى هذا الحد، ولكنه من المستحيل أن تزدهر الحياة الإنسانية، كما هي عليه الآن في الظروف الحالية.

إن الأوكسجين والهيدروجين وثاني أوكسيد الكاربون، وغازات الكاربون الأخرى على اختلاف أشكالها، تتركب فتصبح عناصر عظيمة للإنسان والنبات والحيوان، وبناءً على ذلك لا يوجد احتمال ١ من عشرة ملايين أن تجتمع هذه الغازات في تناسبها المطلوب وبجميع خصائصها اللازمة للحياة عن طريق الصدفة. ولذلك يقول أحد علماء الطبيعة (إن العلم لا يملك أي تفسير للحقائق، والقول بأن هذه الغازات حدثت بطريق الصدفة إنما يعتبر تحدياً وتصادماً مع الرياضيات).

وفي الكون سنن رياضية محكمة، بصورة تدعو إلى الدهشة والإكبار، وحتى المادة الجامدة التي لا تملك شعوراً لا يمكن أن تجري على غير نظام، وإنما تتبع قوانين صارمة معلومة، ولفظ الماء أينما كان الماء على هذه الأرض الواسعة؛ لن يكون إلا مادة سائلة تحوي على الهيدروجين بنسبة ١١,١%، والأوكسجين بنسبة ٨٨,٩%، ولذلك يستطيع أي عالم يجري عملية تسخين الماء في معمله أن يقول بكل قطعية: إن درجة حرارة الماء هي (١٠٠) سنت جراد، دون أن يرى مقياس الحرارة، ما دام ضغط الهواء ٧٦٠ م.م، فإذا كان ضغط الهواء أقل فسوف نحتاج طاقة أقل لتوفير الحرارة التي تدفع جزئيات الماء وتعطيها صورة البخار، عندها سوف تنخفض درجة غليان الماء، وعلى العكس لو كان ضغط الهواء أكثر من ٧٦٩م.م، فستزداد درجة الغليان بمقدار زيادة ضغط الهواء، لقد جربوا هذه العملية مراراً إلى أن تمكنوا من البت في أمر الغليان. فكيف تم هذا الضبط بطريق الصدفة أم بطريق التجربة

العلمية.مثال آخر، إن أول شيء يشاهده الطالب في مختبر الكيمياء هو نظام العناصر ودوريتها، وقد وضع العالم الروسي (ماندليف) خريطة للعناصر الكيمياوية، بمقاديرها الجوهرية، وسميت الخريطة الدورية، وفي ذلك الوقت لو تكن كل العناصر قد تم كشفها، فتركها (ماندليف) إلى أن ملأها العلماء فيها بعد، كما تخيلها هو من قبل كشفها بسنين طويلة، وهذه الخريطة تحوي جميع العناصر الجوهرية بأرقام وقوائم مختلفة، ومعنى الأرقام الجوهرية هو العدد الخاص الذي يوجد في مركز الذرة، من الشحنات الكهربائية الإيجابية (البروتون) وهذا العدد هو الفارق بين ذرة عنصر وذرة عنصر آخر، فالهيدروجين الذي نعتبره أبسط عنصر، يوجد في مركز ذرته شحنة واحدة من الكهربائية الإيجابية، وكذلك توجد في العنصر المسمى (هليم) شحنتان، وفي (ليثم) ثلاث شحنات.

وما كان لنا أن نتمكن من وضع خرائط العناصر المختلفة إلا بناءً على قوانينها الرياضية، فهل من الممكن أن يطلق العلماء على هذا النظام الرائع بالصدفة. إن أبعد الأمور عن القياس وأبعدها استحالة، هو أن نؤمن بأن الكون قد جاء نتيجة الصدفة، فمن الخصائص الحكيمة في هذا الكون كونه صالحاً لتصرفات الإنسان عن الضرورة، ولنأخذ النيتروجين مثالاً على ذلك فإن ٧٨% من النيتروجين توجد في كل هبة من الرياح، وكذلك توجد في أجزاء كيمياوية أخرى وتسميتها النيتروجين المركب، وهذه كلها يستغلها النبات لكي يهيئ لنا الجزء النيتروجيني في غذائنا، فلولا هذه العملية لهلك الحيوان والإنسان.

إن هناك طريقتين لتحليل النيتروجين في الأرض، فأما الطريقة الأولى: هي العملية الجرثومية، وتقوم بأدائها الجراثيم التي تعيش في جذور الشجرة تحت الأرض، ويبقى هذا النيتروجين تحت الأرض بعد الحصاد مع الجذور. وأما العملية الثانية التي تصنع النيتروجين فهي الرعد، فكلما احتك الرعد في الفضاء مزج شيئاً من الأوكسجين في النيتروجين، ويصل عن طريق الأمطار إلى الحقول، ولكن هذه العملية لا تكفي

لذلك نرى المزارعين وهم يتحولون من حقل إلى آخر خلال المواسم الزراعية. وأعجب ما حدث في بداية القرن العشرين عندما قل النيتروجين وضاقت الأرض بما رحبت على سكانها وكادت أن تحصل فاقة عظيمة وهلاك لمن في الأرض، اكتشف الإنسان طريقة ثالثة للحصول على النيتروجين، وهي استخدام الهواء للحصول على النيتروجين المركب في صورة (السماد)، وهكذا استطاع الإنسان أن يبعد عن الإنسانية الهلاك المحقق من قلة النيتروجين في الزراعة.

ولنتأمل الآن في أمر الكون، فلو كان كل هذا بالصدفة فكم من الزمان استغرق بناءً على قانون الصدفة. إن الأجسام الحية تتركب من خلايا حية، وهذه الخلية مركب صغير جداً، ومعقد غاية التعقيد، وهي تدرس تحت علم خاص يسمى (علم الخلايا) ومن الأجزاء التي تحتوي عليها هذه الخلايا، البروتين، وهو مركب كيمياوي من خمسة عناصر هي: الكاربون، الهيدروجين، النيتروجين، الأوكسجين، الكبريت، ويشمل الجزيء البروتيني الواحد أربعين ألفاً من ذراء هذه العناصر.

وفي الكون أكثر من مائة عنصر كيمياوي، فأية صدفة هذه التي تركب هذه العناصر مجتمعة، ذلك لأن الجزيء البروتيني يتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية، وأخطر ما في هذه العملية هو الطريقة التي تختلط بها هذه السلاسل، فإنها لو اجتمعت في صورة غير صحيحة لأصبحت سماً قاتلاً بدل أن توجد موجدة للحياة. وهذا الجزيء البروتيني ذو وجود كيمياوي لا يتمتع بالحياة إلا عندما يصبح جزءاً من الخلية، وهذا يعني أن عظمة تشكيل الجزيء البروتيني لا تشكل إلا مقداراً ضئيلاًً من الخلية، ومثلما نعلم أن الجسم البشري يتكون من بلايين، إن مقادير الوقت، وكمية المادة، والفضاء اللانهائي، التي يتطلبها حدوث مثل هذا الإمكان هي أكبر وأكثر من المادة والفضاء الموجودين الآن، فلا يمكن تخيّل أو تخطيط حدوث مثل هذا الأمر أي على وجه الصدفة.

هذا وقد حاول العلماء معرفة عمر الكون، وأثبتت الدراسات في هذا الموضوع، أن كوننا موجود منذ (٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة، وهي مدة قصيرة لا تكفي على أية حال من الأحوال لإيجاد جزيء بروتيني واحد، بناءً على قانون الصدفة.

ولنتأمل الآن، بعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الروح تحتاج إلى بلايين البلايين من السنين، حتى يتسنى الحصول على (جزيء بروتيني) بطريق الصدفة، فكيف إذن جاءت في مثل هذه المدة القصيرة في شكل مليون من أنواع الحيوانات، وأكثر من ٢٠٠,٠٠٠ من أنواع النباتات، فضلاً عن ذلك المخلوق الأعلى الذي نسميه الإنسان، ولا أدري كيف تجرؤ على مثل هذه الاعتقادات ولاسيما ما تقوله نظرية النشوء والارتقاء البعيدة كل البعد عن عوامل الحقيقة الإنسانية، وهو ما يقوله أحد علماء الغرب وهو (مارلين – كريدر) (إن بالإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق كما قالته نظرية النشوء والارتقاء عن طريق الصدفة في نسبها الصحيحة هو ما يقر من لا شيء). ويقول البروفيسور أيدوين كونكلين في هذا الصدد (إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة حادث وصدفة هو شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم، نتيجة إنفجار صدفي يقع في مطبعة).

وهذا قول آخر لأحد العلماء الأمريكيين: (إن نظرية الصدفة ليست افتراقاً، وإنما هي نظرية رياضية كلياً، وهي تطلق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية). أما عالم الطبيعة الأمريكي (جورج إيرل ديفيس) فيقول (لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه، فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله، وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود الإله، ولكن إلهنا هذا سيكون عجيباً، إلها غيبياً ومادياً في آن واحد، وإنني أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي، وهو ليس جزءً من هذا الكون، بل هو حاكمه ومديره ومدبره، بدلاً من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات).

فما الذي يريده أصحاب الكتاب بانشقاقهم اليوم عن سيدنا محمد (ﷺ) وقرآنه الكريم، وما الذي يريده الذي يدعي الإسلام اليوم بانشقاقهم عن سنة رسول الله (ﷺ) وبما جاء به من الحق من الأقوال والأفعال. أما آن الأوان للتفكير والتدبر ونحن نعيش هذه الآيات البينات.

٩. ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾(١).

هذه الآية الكريمة حلقة من سلسلة التربية المنهجية التي تولتها الرعاية الإلهية لإخراج الأمة من عوامل الضعف البشري في أخص خصائصه وهو النفاق، وما النفاق في حقيقته إلى الضعف عن الإصرار على الحق في مواجهة الباطل، وهو ثمرة الخوف والطمع والتقيّد بملابسات الأرض ومواضعات الناس في عزلة عن منهج الله للحياة، وإذا لم تتجرد النفس لله؛ لم تتحرر أبداً من ضغط القيم والأوضاع والحرص والشح أمام الأشخاص والأحداث وأمام القوى الأرضية، والسلطان وأصحاب السلطان.

وتبدأ الجملة في الآية القرآنية بالتهكم الواضح في استعمال كلمة ﴿ بَشِّرِ ﴾ مكان كلمة (أنذر)، بشارةً للمنافقين في توليهم دون المؤمنين، وسوء ظنهم بالله وسوء تصورهم لمصدر العزة والقوة. إن إرادة المنافقين وضعفهم في مواجهة الحق لهي بحق رواسب تدل على ضعف الإيمان، ومن يؤمن بأن القوة كلها لله ومقاليد الأمور بيد الله سوف يكون متوكلاً على الله وحده دون سواه، وليس متواكلاً كما هو الحال بالنسبة للمنافقين، فالتوكل يقتضي العزم وجمع الهمة وبذل قصارى الجهد مع التفويض دائماً وإسلام الأمر إلى المشيئة في نهاية المطاف فيكون نجاح المسعى أو فشله أمراً مقدراً. وإنما يختلف المتوكل عن الرجل المعتد بنفسه بأنه مبتدئ من الحول والطول، يعمل في نشاط ثم يرجع نجاح إلى الله لا إلى ثمرة يديه، ويسمى نجاحه توفيقاً، لا إحرازاً

---

(١) سورة النساء/ الآيتين: ١٣٨ -١٣٩.

أحرزنه بإرادته، ويقول عن عمل يديه أنه كان سبباً ضمن العديد من الأسباب التي يسرها الله له.

أما الرجل المعتد بنفسه فيتصور أن كل ما بلغه في حياته كان بذكائه ونشاطه، ولا يتصور وجود إرادة أخرى غير إرادته تعمل في حياته أو في الكون. والمتواكل إنسان ثالث مختلف عن الاثنين فهو إنسان متقاعد كسول فتور العزم والهمة لا يحرك ساكناً، فكيف بهذا الشخص إذا ما التقى أهل السلطان أن يضعف أمامهم ويتملكه الضعف البشري. لذلك فالإنسان المتواكل لا يثق في نفسه ولا يؤمن بالنظام الذي أقامه الله وربط فيه كل شيء سلاسل من الأسباب وجعل من العزم سبباً ضرورياً لإنجاز كل شيء.

وأمّا المتوكل على الله فهو مثل المسافر الذي يفكر في السفر إلى مكان ما، فيسارع في همة ونشاط إلى حجز مقعده في القطار أو الطائرة، ويهرول إلى ميعاد السفر في ساعته، حتى إذا جلس في مقعده وثق بقائد الطائرة أو القطار، ووثق بالقوانين التي تجري على وفاقها محركات القطار أو الطائرة. ونحن في الدنيا مثل هذا المسافر نحاول في همة ونشاط أن نحجز لأنفسنا مقعداً في هذه المركبة التي تسمى الدنيا ونسلم الأمر لله في ثقة وطمأنينة لأنه هو القادر والقوي في كل شيء.

وتملأ هذه الثقة قلوبنا ونحن نعمل ونجاهد فتمتلئ سكينة وأمناً بأن العدل يجري مجراه وأن كل واحد يأخذ ما يستحقه فلا نحزن على فشل ولا نغتر بنجاح، ولو استولى علينا الانزعاج لما يجري علينا من أقدار لكان دليلاً على عدم إيماننا وعدم ثقتنا في الله، لذلك نتخبط في الدنيا ونطرب وندخل في حيز النفاق مع الآخرين ظناً منا أنهم يمكن أن يفيدوننا بشيء. إن من يؤمن بالله ولا يرتاب في أمر إيمانه عليه أن يجعل الله نوره ودليله الذي يمشي به، فلا حول ولا قوة إلا بالله، فهو الوحيد القادر، وهو الوحيد الموجود بحق. لا إله إلا الله، فمن قالها مؤمناً بها عقلاً وقلباً وجعلها منار حياته فقد امتلك الدين كله، ويقول الله عنها في حديث قدسي ((لا إله إلا الله حصني،

فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمن عذابي)). إن (لا إله إلا الله) كلمة التعريف بالله وبأنه لا موجود بحق إلا هو، وكل ما عدا وجوده فهو من قبيل الوهم والشراب وخداع الحواس.

ليس كمثله شيء في السماء ولا في الأرض، احتجب عنا من فرط إشراقه، وغاب لفرط دوامه، واختفى لفرط ظهوره، منه المبتدأ وإليه المآب والمنتهى، ولا سلام إلا معه ولا سكينة إلا في حضرته، هو مولانا وربنا وسع كل شيء رحمةً وعلماً.

لا طاقة لنا بحمده، ولهذا حمد نفسه بنفسه في فاتحة كتابه فقال ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]، وهو الوحيد القادر على الحمد، لأنه الوحيد العالم بخفايا أعماله، وما نحن إلا شهود لذرة واحدة من ذراته هي الأرض في سماوات لا تتناهى آفاقها.

وهو قد علمنا أنه قد خلق العالم باسمه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[2]، لا باسمه (القهار الجبار) فهو قد خلقه بالرحمة بل بمطلق الرحمة لمن يستحق ولمن لا يستحق.

هذا هو رب العزة الذي يبتغي المنافقون دونه لدى أهل الأرض من الكافرين وغيرهم العزة، فهل نالوها، نعم نالوها بؤساً وشقاءً ومصيراً في الآخرة إلى النار.

وهكذا نرى المنهج الرباني الأصيل كيف يعالج الرواسب ويعمل على تعبئة النفوس ضد الضعف البشري لكي لا تقع في الخطأ، وتؤذي حياتها في الدنيا قبل الآخرة، ثم في الآخرة عذاب أليم.

١٠. ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾[3].

---

(١) سورة الفاتحة/ الآية: ٢.

(٢) سورة الفاتحة/ الآية: ٣.

(٣) سورة النساء/ الآية: ١٤٠.

هذه الآية الكريمة تدخل في صلب الإيمان، لأنها تكشف ضعاف النفوس من الذين يدّعون الإسلام حين يكفر ويستهزأ بآيات الله بحضرتهم فلا تأخذهم الحميّة على دينهم، وهذا الأمر يدل على فساد الدين وخذلان الفرد لنفسه قبل كل شيء عندما ينخرط في كتمانه ولا تأخذه الحمية لدينه. فالذي يحاول المساس بآيات الله العظيمة، فإنه يمس المقدسات الدينية، فضلاً عن تشويه عقيدته من خلال انهزامه النفسي الذي يشعر به وبالتالي هذا الأمر ضلالة ليس للدين فحسب من خلال المساس بشريعته وإنما ضلال للمجتمع الذي يحتضن الدين، فيفسد المجتمع وتتزعزع مبادئه الدينية.

إذن فهذه حالة مضادة للعقيدة لأنها تعمل على اندثارها وهلاك أصحابها، ورب كلمة عابرة لا يأبه صحابها بها تترك آثاراً مدمرة في تقاليد المجتمع ووجوده تعمل على تقويض الثقة المتبادلة بين أبنائه. ثم هؤلاء الجهلة بأي آيات الله يهزؤون، والقرآن يرى أن الكون يقوم بالحق، وعلى الحق، والخلق بالتالي ليس عبثاً ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[1]، فالكون له بداية، كما أنه له نهاية، ووفق برنامج مرسوم ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[2]. وقد ناقش القرآن هذه المسألة مع الإنسان العربي أيام الجاهلية حين أخذ ذلك العربي عظماً وحوله إلى تراب بيده، وجاء به إلى محمد (ﷺ)، وقال له: أربك يعيد هذا بعد ما رمّ. حينها نزلت آيات من القرآن الكريم للتعامل مع هذه العقلية العدمية، حين قال ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[3]، وقوله ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا

(١) سورة المؤمنون/ الآية: ١١٥.

(٢) سورة ص/ الآية: ٢٧.

(٣) سورة يس/ الآية: ٧٨.

﴿ فَٰعِلِينَ ﴾[1].فأخذ التعجب يأخذ من المشركين أيما مأخذ، كما يأخذ الماديين والملحدين اليوم. فالقرآن إذن يحيل المظهر إلى جوهر المشكلة أي فساد التصور الذي يمتلكه هؤلاء الناس سواءً لما كان أيام الدعوة، أو لما يؤمن به الماديون والملحدون اليوم. وإذا كان الإنسان الجاهلي من اسمه لا يعلم شيئاً عن العلوم الإنسانية اليوم وما وصل إليه العلم، فكيف بفكر القرن العشرين أصحاب الحضارة الغربية، ما هذه المفارقة الغريبة، ذلك أن الحضارة الغربية ما برحت منذ عصر النهضة تخضع لسلطان العلم التجريبي، فكيف ما يزالون بعيدين عن الحقيقة، أهم يعرفون الحقيقة وينكرونها أم ماذا، أنظر ماذا يقول (روبرت أغروس) في كتابه (العلم في منظوره الجديد).

إن (لكل حضارة من الحضارات تصور كوني للعالم، أي نظرة يفهم لها كل شيء ويقيّم، والتصور السائد في حضارة ما هو الذي يحدد معالمها، ويوجه تربيتها، وهذا التصور يشكل إطار الاستزادة من المعرفة والمقياس الذي تقاس به، وتصورنا للعالم هو من الأهمية بحيث لا ندرك أن لدينا تصوراً ما إلا حين نواجه تصوراً بديلاً، أما بسفرنا إلى حضارة أخرى، وأما باطلاعنا على أخبار العصور الغابرة)[2].

هذا السياق يوضح أن العالم مقبل على تصور جديد، هذا التصور هو (أفول الغرب)، كما توقع (أوسفالد شبسينجلد) أحد مفكري الحضارة الغربية، نتيجة المرض الذي ينخر في عظام الحضارة الغربية.

إلا أن هذا التطور المرضي لا يعني أن المجتمعات الغربية سوف تسقط في أيام أو أشهر، وهو ما انتبه إليه العلامة (ابن خلدون) قديماً في كتابه (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان) إذ قال: (ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال بتبدل

---

(١) سورة الأنبياء/ الآية: ١٠٤.

(٢) العلم في منظوره الجديد، ١٥.

الأعصار ومرور الأيام، وهو داء شديد الخفاء، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات فكذلك يقع في الأقطار والأزمنة والدول، سنة الله التي قد خلت في عباده)[١].

فمرض الحضارة الغربية تنبه له العديد من المفكرين منهم شبسينجلد كما أسلفنا، وهذا بتّ بنهايتها من غير عودة، ومنهم المؤرخ البريطاني (جون أرنولد تويستي كيندي) الذي درس صعود وسقوط القوى العظمى، وهو يرى أن مركب السقوط يطوق أمريكا كما حل بكل القوى العظمى التي مرت خلال القرون الخمسة الماضية، ودعم هذا الاتجاه الفيلسوف الفرنسي (جاك أتالييه) وهو يمثل الفكر النابض والمتوقد بجانب الرئيس الفرنسي ميتران، الذي يمدّه بالأفكار والرؤى، ذكر عن هبوط الولايات المتحدة بتحليل واسع وأشار إلى الخلفية الثقافية في جوهر الانحطاط الأمريكي في كتابه (آفاق المستقبل).

ونعود إلى شبسينجلد الفيلسوف الألماني، فهو من خلال اطلاعاته نجده واعياً تماماً بالحضارة الغربية وتاريخها، فهو حين يصدر حكمه على الحضارة الغربية وبأنها منتهية فإنه يرجح سبب ذلك إلى الاستعمار الذي كان الأساس الذي ارتكزت عليه هذه الحضارة، حيث قامت على أشلاء الضحايا وإذلال الجماهير التي اعتبرت نفايات التاريخ، فالاستعمار هو الرمز المميز لاحتضار المدينة الغربية وموتها، وعندما يتعرض (شبسينجلد) للتفاصيل في مظاهر انحطاط الغرب يكشف بعض الفصول المظلمة والسوداوية في صورة تدمير الإنسان لحضارة (الأزتيك – المايا)، فحضارة المايا لم تمت جوعاً ولم تكبح أو يعترض سبيلها معترض، بل قتلت قتلاً وهي في أوج ازدهارها، بما فيها من قوة عالمية، وبما لها من موارد أضخم بكثير من موارد الدول الإغريقية والرومانية في زمن هانيبال، وبما لها من سياسة واعية مدركة، ونظام مالي

---

(١) كتاب العبر، ٢٨.

أعد بعناية وفهم، وتشريع بلغ درجة رفيعة من التطور، وأنظمة إدارية وتقاليد اقتصادية لم يحلم بمثلها حتى وزراء شارل الخامس، وثراء عريض في الآداب واللغات، مجتمع المايا لا يستطيع الغرب أن يقدم مثله طوال ما بقي على وجه الأرض، حضارة المايا وما لها من أرصدة حضارية لامعة لم تندثر لحرب بائسة، إنما جرفتها خلال سنوات قليلة عصابة ضئيلة العدد من اللصوص دمرتها تدميراً سخرتها بعض دول الغرب عليها، فأبادت حضارة المايا بأكملها. وأشد مظاهر هذه المأساة إيلاماً وترويعاً للنفس أن الغرب قام بعملته الدنيئة هذه نتيجة مغامرة المغامرين، وهذا المثال دليل قاطع ما بعده دليل على أن حضارة الغرب لا تملك أي معنى، فهي بلا قيم ومبادئ وأخلاق، وهذا نتيجة من لا يؤمن بالله الواحد الأحد.

ونعود إلى المؤرخ البريطاني توينبي الذي توقع زوال الحضارة الغربية، ذلك أن توينبي درس قرابة الثلاثين حضارة، ودرس منها بشكل دقيق خمس حضارات، ومنها الحضارة الفرعونية التي تعتبر أكبر عمراً بين الحضارات حيث أنها عاشت حوالي ٣٠٠٠ سنة، فذكر أن التحدي في الحضارة الفرعونية انتقل من البيئة إلى النفس، فعجزت الحضارة الفرعونية عن الاستجابة للتحدي فانهارت وألقى الموت يده الباردة عليها، حتى أصبحت كلمة الفرعونية لعنة ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً ﴾[١]، وأصبح المرض الفرعوني مصيبة مخيضة حين ينزل بمجتمع من المجتمعات ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[٢]، حينما ينغلق إلى طبقات، منها شيع متميزة وأخرى مضطهدة ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ

---

(١) سورة هود/ من الآية: ٩٩.

(٢) سورة القصص/ الآية: ٤.

بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴾[1].إن انهيار الدول والمجتمعات والحضارات ذو علة داخلية بالدرجة الأولى، وهو ما انتبه إليه المفكر الفرنسي جاك أتاليبه حينما توقع هبوط الولايات المتحدة الأمريكية، حيث عزاه إلى العوامل الثقافية الداخلية بالدرجة الأولى. ويرى (توينبي) أن سبب انهيار الحضارات هو انتحار تلك الحضارات، فإذا ما تطلعنا إلى الدول العالمية من خلال أنظار مواطنيها، سنجد أن هؤلاء المواطنين لا يتمنون الحياة الدائمة لدولهم لكثرة مشاغلهم والتزاماتهم فهم آلة ليس إلا.

ولنسمع إلى تقرير (جاك أتاليبه) حول هبوط الولايات المتحدة، يقول جاك أتاليبه إن الكثيرين يرفضون هذه الفكرة، فهم يضعون في حسابهم الرؤوس النووية الاثني عشر ألفاً التي تملكها الولايات المتحدة، وكذلك طاقتها في غزو الفضاء، ويلاحظون قوة الدولار وحصة الولايات المتحدة من الأسواق، وثروات وول ستريت، وحجم مصارفها، وقوة النظام الرأسمالي فيها، كما يلاحظون هيمنة اللغة الإنكليزية، والطاقة الإبداعية لسينما هوليود.

وبعد استعراض هذه الحجج يقوم أتاليبه بتنفيذها على النحو الآتي (إن هذه الحجج كلها غير مقنعة، ذلك أنه بالنسبة لكل من يعتبر الصناعة هي الأساس الثابت الوحيد لقوة البلد، فإن علامات الهبوط النسبي في أمريكا تبدو متحدة الاتجاه ولا يمكن نكرانها، ولنستعرض أهم هذه العلامات. إن الإنتاجية في الصناعة الأمريكية تنمو بمعدل يقل بثلاث مرات عن معدل الإنتاجية في الصناعة اليابانية مثلاً، كما يقل مرتين عن معدل نمو الصناعة في أوربا، ولم يصنع في الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة شيء سوى المعالج الصغرى، حتى أن السلع الاستهلاكية التقليدية لم تعد تنتج في أمريكا بطريقة تجعلها قابلة لتحمل المنافسة في الأسواق، وأمريكا لم تعد تصدر من أراضيها لا سيارات ولا أجهزة تلفزيونية ولا سلعاً تجهيزية، بالرغم من جهودها

---

(١) سورة الأنعام/ الآية: ٦٥.

المتكررة لإعطاء الاقتصاد الأمريكي قوة تنافسية مصطنعة عن طريق تخفيض الدولار، فالميزان التجاري الأمريكي في حالة عجز متزايد، وفي مجال التكنولوجيا المتقدمة يظهر الميزان التجاري الأمريكي في حالة فيض ولكنها سوف تفقد هي الميزة قريباً، ثم إن الدولة في أمريكا لم تعد قادرة على تمويل نفقات التعليم والصحة وصيانة النظام الاجتماعي، فالجسور والطرقات والمشافي كلها تبدو عليها بوضوح علامات التراجع، والدولة بدلاً من أن تفرض ضرائب جديدة فإنها تلجأ إلى تقليص الإنفاق على البنى التحتية وتقترض من السوق العالمية، والادخار الأمريكي هو الآخر في حالة تراجع متزايد، هذه التطورات تكمن جذورها في تحولات ثقافية عميقة، والصورة التي يكونها الشعب الأمريكي عن نفسه تتمركز بصورة متزايدة حول إبراز حنيني لمجده الذاتي)[١].

وإذا عدنا إلى القديم في ذات السياق فإن التاريخ يحدثنا في صورة مصارع الغابرين عن انهيار إمبراطورية مخيفة هي الإمبراطورية الآشورية، فإن المحارب الذي لا يقهر والذي وقف متحفزاً في نينوى عام ٦١٢ قبل الميلاد كان في الواقع جثة في سلاحها أمكن المحافظة عليها بفعل جسامة العتاد الحربي، ولم يكن المدنيون يشكون في أن خصمهم المرعب لم يكن إنساناً على قيد الحياة، فوجهوا إليه ضربتهم القاضية، إن مصير آشور طراز وحده إذ تعيد لوحة (الجثة في سلاحها) إلى الذهن رؤية الفيلق الإسبرطي في ميدان معركة لوكترا عام ٢٧١ قبل الميلاد، والانكشاريين في الخنادق أمام فيينا عام ١٦٨٢م، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[٢].

وشبيه لهذا الحالة يروي لنا القرآن مثلاً بديعاً في هذا الصدد، فهو يروي لنا عن موت سليمان، وإنه مات إلا أن الجن التي كانت في العذاب المهين لم تدرك هذه

---

(١) آفاق المستقبل، جاك أتاليه، ٧٨.

(٢) سورة يوسف/ الآية: ١٠٥.

الحقيقة، ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[1]، فدابة الأرض الحقيرة هي التي قضمت منسأة النبي سليمان (عليه السلام)، تلك التي كانت الجثة تقيم توازنها عليها، وسقطت الجثة على الأرض وكان دوي سقوطها عظيماً أطلق الجن من محبسهم الذليل، وعرفت الجن أنها في الواقع كانت ترهب جثة لا تملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. وهذه هي الحكم القريبة المحجوبة كما يقول ابن خلدون، والقرآن الكريم يسمي هذه الحقيقة الخفية والتي في متناول اليد (عالم الغيب).

وإن الذي جعل للآشوريين قديماً هو ما حصل بعد ذلك لأمم كثيرة، فذات الشيء حصل للإمبراطورية الهولندية والإسبانية والفرنسية والبريطانية في مدن القرون الخمسة الماضية، كما استعرضها المؤرخ الأمريكي (باول كينيدي) في كتابه (صعود وسقوط القوى العظمى) وهو ذات المؤرخ الذي رأى أن القدر قد طوق الولايات المتحدة أيضاً.

ولنتأمل قول الله تعالى عن التاريخ وهو يطوي الشعوب والحضارات فلا يبقي منهم شيئاً ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴾[2].

إذن فليهزأ الذي يريد أن يهزأ الآن، ولنرى من يهزأ من من بالتالي.

١١ . ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[3].

هذه الآية الكريمة مواجهة حقيقية مع المشركين وهم واقفون يوم القيامة ومقرون بتفريطهم الذي سلكوه في الدنيا تجاه ما جاء به سيدنا محمد (ﷺ)، ولا عجب

---

(١) سورة سبأ/ الآية: ١٤.

(٢) سورة مريم/ الآية: ٩٨.

(٣) سورة الأنعام/ الآية: ٣١.

في ذلك، فكم من الخلق ستقف يوم القيامة وهم نادمون على عدم اتباع سيدنا محمد (ﷺ) وما جاء به من الحق.

بالآية الكريمة امتحان عظيم لأهل الإيمان لأنها تقد في دائرة الغيب، وقد انفرد القرآن بتخصيص سور طويلة يتلو فيها أنباء وأخباراً وحقائق من الغيب وهي في الحقيقة تفضلٌ إلهي علينا بعلم ما لا نعلم، كما أنها امتحان لعمق إيماننا، ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[1]، ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾[2]. فالمؤمنون بالغيب لا يجادلون ويطلبون البراهين، وإنما يؤمنون غيباً وقلباً، فالدين إحساس قبل أن يكون نظرية تؤخذ بالبرهان، والله سبحانه يحاول من خلال هذا الغيب أن يكشفنا أمام نفوسنا، فإذا رفضنا وكذبنا فإيماننا من قشرة لا غير. وقد ورد في القرآن الكريم الغيب على نطاق واسع من خلال الملائكة، والجن، والساعة، والعرش، والكرسي، والصراط، والجنة، والميزان، واللوح، والقلم، والبرزخ. وأكبر غيب ولا شك هو الشيطان نفسه، إبليس وقبيله، ويقول عنه الله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3]. وحكاية هذا القرين تتكرر في القرآن ويروي لنا الله سبحانه يوم القيامة حينما ينكشف لكل واحد قرينه الشيطاني ويشاهده فإنه يهتف ندمان مستحسراً ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾[4].

والحقيقة إن الإيمان بالجن والملائكة قلباً هو دليل كاشف على نوع من التذكر الغامض لعالم القدس والملكوت وإنه إيمان دال على شيء وليس مجرد تسليم خاوٍ.

ويروي لنا الله في القرآن أن الإنسان لا يترك لقرين الشر من الجن وإنما له قرين آخر من الملائكة يلازمه ويلهمه بالخير، ويظهر هذا القرين الملائكي ليشهد يوم

---

(١) سورة البقرة/ من الآية: ٣.

(٢) سورة الأنبياء/ الآية: ٤٩.

(٣) سورة الأعراف/ من الآية: ٢٧.

(٤) سورة الزخرف/ من الآية: ٣٨.

القيامة ويخبر عن صاحبه ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾[1].ثم هناك جبريل روح القدس، ويروى عن النبي (ﷺ) أنه رآه مرتين على صورته الحقيقية، ويذكر الحديث أن إحدى هاتين المرتين كانت في البقيع وفي ليلة مقمرة، وما أورده الله عن جبريل في سورة النجم ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾[2]. فوصف الله جبريل بأنه شديد القوى، ونفهم من القرآن الكريم أن جبريل هائل وعظيم في إمكانياته، وإنه ينزل إلى الأرض بأي صورة ويحمل الوحي إلى أي نبي في أي عصر وبأية لغة.

ويعلمنا الله تعالى أن الملائكة ليس لهم جنس معين فهم ليسوا ذكوراً ولا إناثاً، وهم لا يتناسلون ولا يموتون، وهم مجرد مخلوقات لله، يعيشون في طاعة الله، ويفعلون ما يؤمرون.

ويروي الله تعالى عن الجن تفصيلاً فيقول إنهم أمم منهم الصالحون الأخيار ومنهم الكفرة الأشرار، وإنهم ذكور وإناث وإنهم يتناسلون، ويستمعون إلى ما يدور في عالم الإنس ويوسوسون لهم، ومنهم المردة الذين يتطاولون فيتسمعون إلى ما يجري في الملأ الأعلى أملاً في معرفة الغيب فيقذفون بالشهب ويحرقون، ومنهم من يمس الإنسان بمشيئة الله، ويكون الشفاء بمشيئة الله حصراً، أما محاولة استرضاء الجن فهي من قبيل الجهل والشرك، كذلك فإن تحضيرهم من أجل المنافع أمر لا يعود نهاية المطاف إلا بالضرر وليس النفع، وإنهم يموتون ويبعثون ويحاسبون كأبناء آدم.

أمّا الشيطان فهو من الجن ولكن الله أمهلهم فلا يموتون إلا إذا قامت الساعة فيكون موتهم ثم بعثهم ثم خلودهم في النار.

والشياطين هم الذين علموا الناس السحر، ويروي لنا القرآن الكريم أن أساليب السحر جاءت إلى الأرض لأول مرة في بابل، حيث نزل بها ملكان هما هاروت وماروت جاءا إلى الأرض في شكل بشر، وإن الله أراد بنزول هذه الأسرار فتنة الناس

---

(١) سورة ق/ الآية: ٢٣.

(٢) سورة النجم/ الآيتين: ٤ -٥.

وامتحانهم.وجاء ذلك السحر مرة أخرى في القرآن الكريم في قصة موسى (عليه السلام) وفرعون، ومرّة ثالثة في حديث السامري؛ وهو اليهودي الذي صنع بالسحر عجلاً من ذهب له خوار، ثم حكاية الساحرات النفاثات بالعقد، وهذا السحر الذي ورد في القرآن الكريم هو علم قديم اندثر، وهو غير ما نرى حولنا ونسمع من شعوذات، فلم يبق الآن من السحرة إلا أدعياء يتكلمون بما لا يعرفون، أمّا المخطوطات القديمة التي ضمت معظم هذه الأسرار فقد اندثر أكثرها، وكذلك النداء على الجن وتحضيره وتسخيره هو الآخر علم شحيح لا يعرف أصوله إلا القليل، وهم يشقون بهذه المعرفة ويهلكون.

أمّا موقف العلم الحالي من هذه الأسرار، فهو بإيجاز لا يعلم ولا يعقل. ولكن هناك ظاهرة التنويم المغناطيسي، الذي يعترف بها العلم دون أن يجد لها تفسيراً، إذ لا يعرف العلم إلى الآن كيف تتسلط إرادة المنوم على الوسيط، وكيف يتصل عقل الإثنين فيصبحان كعقل واحد، فما يراه المنوم يراه الوسيط النائم، وما يطلبه المنوم يستجيب له الوسيط فوراً وهو كان أمراً بالشلل أو الغيبوبة أو الارتفاع في الهواء. وكل هذه حقائق يسجلها العلم ثم لا يعرف لها تفسيراً.

وإذا جئنا إلى غيب آخر وهو (البرزخ)، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1]، ذلك البرزخ الذي يفصل أرواح الموتى عن دنيا الأحياء، فمما ورد في القرآن الكريم عن البرزخ قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[2]. والآية تتحدث عن أحواض البحار والمحيطات المالحة وأنهار المياه العذبة كيف تلتقي ويصب الواحد منها في الآخر دون أن تمتزج ودون أن تتلوث الأنهار العذبة بالمالحة، ومن الواضح هنا أن البرزخ ليس مجرد الأرض الفاصلة، فالأرض الفاصلة لم تمنع من مسيل الأنهار لتصب في المحيطات، وإنما في القوانين التي جعلت المحيطات أخفض من الأرض؛ والأنهار تنزل إليها من عوالي الجبال.

---

(١) سورة المؤمنون/ من الآية: ١٠٠.

(٢) سورة الفرقان/ الآية: ٥٣.

ولو حدث العكس لتلوثت كل المياه العذبة، ثم إن الله جعل مياه المحيطات ترتفع في المد بفعل جاذبية القمر، ولكن بمقدار، ولو كان القمر أقرب إلى الأرض مما هو عليه الآن، لكان المد العالي الذي يحدث كفيلاً بأن تصب المحيطات في الأنهار فتلوثها، ولما وجدنا قطرة من ماء عذب لنشربها.

إن البرزخ، والحجر المحجور، كلها إشارة إلى قوانين تمنع وتضبط وتحفظ لكل شيء حدوده ومكانه، وهذا ما يسفر لنا ما قاله الله تعالى عن الموتى ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

فليس معنى البرزخ هنا فاصل مكاني يفصل أرواح الموتى عن دنيا الأحياء، وإنما معناه قوانين مانعة، فالأرواح بعد الموت تبدأ حياة ذات قوانين مختلفة، ولهذا يستحيل عليها أن تخاطبنا، ويستحيل علينا أن نخاطبها لأن بيننا برزخاً، هو اختلاف القوانين بين عالمنا وعالمهم، مع أنها قد تكون حولنا في ذات اللحظة والمكان، أي أنها معنا، ولكن الاتصال يظل مستحيلاً ومعدوماً.

كما أن أحداً إلى يومنا هذا لم يتوصل إلى حقيقة الموت في الإنسان ولماذا يحدث، وهناك أكثر من مائتي إجابة عن هذا السؤال الخطير الذي يطرح في المجالس العلمية، ومنها أن الموت (فقدان الجسم لفاعليته)، (إنتهاء عملية الأجزاء التركيبية)، (إنتشار سموم في أمعاء الجسم) وما إلى ذلك من الإجابات التي تتردد حول ظاهرة الموت.

إن القول بفقدان الجسم لفاعليته جذاب للعقل، فإن الآلات الحديدية والأقمشة وما إلى ذلك كلها تفقد فاعليتها بعد أجل محدود، فأجسامنا أيضاً تبلى وتفقد فاعليتها كالجلود التي نلبسها في موسم الشتاء، ولكن العلم الحديث لا يؤيد هذا الطرح، لأن المشاهدة العلمية للجسم الإنساني، تؤكد أنه ليس كالجلود الحيوانية والآلات الحديدية، بل ليس كالجبال، بل أقرب شيء يمكن تشبيه الإنسان به هو ذلك (النهر الجاري) الذي لا زال يجري منذ آلاف السنين، فمن الذي يستطيع القول أن النهر يبلى ويعجز،

إن خلايا جسم الإنسان تقوم بإصلاح ما فيه من أمراض ومعالجتها تلقائياً، رغم ذلك يعجز ويموت.

إن جسمنا في تجدد دائم، وإن المواد الزلالية التي توجد في خلايا دمائنا، تتلف ثم تتجدد، ومثلها جميع خلايا الجسم، تموت وتحل مكانها خلايا جديدة، اللهم إلا الخلايا العصبية، وتفيد البحوث العلمية أن دم الإنسان يتجدد تجدداً كلياً خلال ما يقرب من أربع سنين، كما تتغير جميع ذرات الجسم الإنساني في بضع سنين، ونخرج من هذا الطرح أن الجسم الإنساني ليس كهيكل بل هو كالنهر الجاري أي أنه عمل مستمر، ومن ثم تبطل كل النظريات القائلة بأن علة الموت هي وهن الجسم وفقده لقوته، فإن الأشياء التي فسدت أو تسممت من الجسم أيام الطفولة أو الشباب قد خرجت من الجسم منذ زمن طويل، ولا معنى لأن نجعلها سبب الموت، فسبب الموت موجود في مكان آخر، وليس في الأمعاء والأنسجة والقلب.

لقد أخفقت كل البحوث التي استهدفت أن تجعل من الموت أمراً غير يقين، يمكن ألا يقع، ولكن بقي الاحتمال الذي أكدته الأزمان وهو أن يموت الإنسان في أي عمر وفي أي زمن، وقد حاول العلماء أن يوقفوا الزمن الفسيولوجي لأعضاء الجسم حتى يؤخر الموت لفترة، ولكنهم فشلوا في ذلك أيضاً.

وهكذا نمضي مع عالم الغيب فبعد عالم البرزخ تقوم الساعة ويبعث الناس ويرون نتائج أعمالهم فمن آمن وصدق وصلى فقد فاز، ومن كذب وتولى عن لقاء الله فقد خسر آخرته خسراناً مبيناً.

١٢. ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[١].

---

(١) سورة الكهف/ الآية: ٢٩.

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، بهذه العزة وبهذه الصرامة، فالحق لا ينثني ولا ينحني وإنما يسير في طريقه، ومن لم يعجبه الحق فليذهبن ومن لم يجعل هواه تبعاً لما جاء من عند الله تعالى فلا مجاملة على حساب العقيدة. إنها حرية الفرد فيما جاء من الحق، وهذه الآية الكريمة تدخلنا في مسألة هل الإنسان مخير أم مسير، والسؤال يطرح معضلة بالفعل، وقد أوصى النبي (ﷺ) أصحابه بعدم الدخول في جدل وقال لهم: ((إذا جاء ذكر القدر فأمسكوا)؛ لأنه علم أنها معضلة من المعضلات الفلسفية العالية التي لا يتيسر الرد عليها بعلوم عصره، وإن الجدل سوف ينزلق بهم إلى متاهة يضيعون فيها، ولذا فضل الإيمان بالقلب على الثرثرة العقلية العقيمة.

ولكن في عصرنا أصبح السؤال مطروحاً بشدة حول هل أن الإنسان مخيّر أم مسيّر، وفي حاجة إلى رد شافٍ من الدين ومن صميم القرآن الكريم. ومن النظرة المبدئية للعالم بما فيه من أرض وسماوات ونجوم وكواكب، نرى أنه يقوم على سلسلة من الأسباب والمسببات، وأن كل شيء فيه يجري بنظام محكم، وإن كان لك ورقة وقلم تستطيع أن تحسب متى تشرق الشمس ومتى تغرب، لأنها تتحرك حسب قانون، وكل شيء في الدنيا يتحرك حسب قانون، إلا الإنسان فإنه يشعر أنه يمشي بكيفه.

الإنسان وحده هو الحر المتمرد الثائر على طبيعته وظروفه ولهذا يصطدم بالعالم ويصارعه، ويستحيل في أي لحظة أن يتنبأ أحد بمصيره.

وحتى حكاية الحتمية الداخلية التي تصورها فرويد فاعتبر الإرادة بسببها حرة في الظاهر لكن مقيدة في الباطن وأسيرة لجبرية الغرائز وآلة الحوافز الباطنة، عاد هو ذاته فنقضها وقال إن الغريزة خام تتصرف فيها الإرادة بالكبت وبالإطلاق، وأصبحت الإرادة بهذا المعنى حقيقة متعالية متجاورة للغرائز.

وهذه الحتمية الداخلية أثارها الماديون، فاعتبروا كل إنسان ابن طبقته، حيث تحدد له طبقته حوافزه النفسية وعواطفه وشخصيته السلوكية، وعلى هذا الأساس يتصرف الفرد كنبيل أو كإقطاعي أو كفلان الفلاني.

وهذه النظرة وضعت الفكر المادي وعلم النفس الطبقي في أشد التناقض، فكيف نفسر سلوكاً كسلوك رجل مثل (تولستوي) وهو من النبلاء الإقطاعيين بحكم الوراثة، وهو مع ذلك لم يتصرف أبداً كنبيل، ولا كإقطاعي بل تصرف كطليعة الفقراء والفلاحين، وماركس ذاته ابن الطبقة البرجوازية ولكنه انقلب عليها.

والحقيقة أن النفس الإنسانية انفردت دون صنوف الوجود بأنها تملك قدرة داخلية على التملص من اللا بدّ، واللازم، والضروري، والمحتوم، وإن الإرادة الإنسانية لها حريتها في أن تخل بأي تعاقد، ويستحيل التنبؤ بما يجري في منطقة الضمير، لأنها منطقة حرة بالفعل، فلا شيء يحول بين الإنسان وبين أن يضمر شيئاً في نفسه، إنه المخلوق الوحيد الذي يملك ناصية أحلامه.

ولكن هذه الحرية البكر الطليقة ما تلبث أن تصطدم بالعالم حينما تحتك به لأول مرة في لحظة الفعل. وأول قيد تصطدم به هو جسدنا نفسه الذي يطالبنا بالطعام والشراب ليعيش ويستمر ولا مهرب من هذه المطالب، فنجري خلف اللقمة، ونلهث خلف الوظيفة، ونضيع في صراع التكسب، فنفقد بعض حريتنا، وهو ثمن ضروري، وليس جسدنا لوحده أداتنا بل أجساد الآخرين أيضاً، فنحن ننتفع بما يصنعه العامل، وما يزرعه المزارع، وما يخترعه المخترع، وما يكتبه الكاتب، وكل هذه هي ثمار أجساد الآخرين وحرياتهم، فالمجتمع كله أداة هائلة موضوعة في خدمتنا، وليس المجتمع وحده بل الكون أيضاً بما فيه من جاذبية، وضغط هواء، ومياه ومحيطات، والسماء وكواكبها، كل هذه الأمور تحاصر الفرد (وتطلب منه الوفاق معها، وهو بالوفاق يربح حريته دائماً، فالفرد حينما يريد أن يصنع شراعه لا بدّ أن يحدد اتجاه الريح، وحينما يريد أن يصنع مركباً فلا بد من أن يأتي بالمادة المناسبة للطفو فوق الماء وهو الخشب، وكذلك عندما يريد الفرد أن يكسب ود الناس فلا بدّ له أن يعاملهم بالحسنى. وسبيله الوحيد إلى فعل حر هو معرفة القوانين والفطنة إلى استغلالها بالوفاق معها وهو دائماً أمر ممكن. والضوابط الخلقية والقوانين الاجتماعية لا تنفي

الحرية وإنما هي أشبه بعلامات المرور، وضعت لتنظم المرور وتفسح أكبر حرية للكل.

وأنت حينما تقيم الضوابط على شهوتك تكسب حريتك لأنك تصبح سيد نفسك لا عبداً لغريزتك، أما حرية السكر والمخدرات والتبذل الجنسي فهي ليست حريات وإنما درجات من الانتحار وإهدار الحياة، وبالتالي إهدار الحرية، وكل اختيار ضد الحياة لا يكون اختياراً، وكل اختيار ضد القانون الطبيعي ليس اختياراً وإنما إهدار للاختيار.

نلخص من هذا إلى أن حرية الإنسان حقيقة برغم ما يقوم حولها من حدود ومقومات، وإن الإنسان حر حرية مطلقة في منطقة ضميره، فهو يستطيع أن يضمر ما يشاء، وحر حرية نسبية في التنفيذ في منطقة الفعل والعمل بحسب ما يقوم حوله من حدود ومقاومات.

ويبقى هذا اللغز الأزلي في علاقة الإنسان بالله، وعلاقة حرية الإنسان بالإرادة الإلهية المطلقة، وهنا يجيء دور القرآن الكريم ليلقي كلمات كالومض الخاطف يعطي بها مفاتيح هذا الإشكال الأزلي، فيقرر أولاً أن حرية الإنسان كانت بمشيئة الله ورغبته ومراده، وأن ما يجري من حرية لا يجري إكراهاً للخالق ولا إكراها للمخلوق ويقول القرآن بوضوح ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

لقد رفض الله أن يكره الناس على الإيمان وكان هذا في إمكانه ولكنه أراد للإنسان أن يكون حراً مختاراً، يختار الإيمان أو الكفر كما يشاء ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾[2].

---

(١) سورة يونس/ الآية: ٩٩.

(٢) سورة البقرة/ الآية: ٢٥٦.

إن الله يتركنا ولو اخترنا العمى على الهدى وقد سبقت لهذا مشيئته، فخيرنا حتى في الاختيار، عرض علينا الأمانة وهي الحرية والمسؤولية، عرضها لنقبلها أو نرفضها وهي الأمانة التي رفضتها الجبال، ولا نعرف كيف تم هذا العرض على الإنسان بأن يكون حراً أو لا يكون، ولا متى تم هذا العرض، هل حدث في مبدأ الخلق مع آدم، أم مع الأرواح قبل نزولها إلى الأرحام، فهذا غيب مطلق. إذن فمنطقة الضمير (النية) هي محل المحاسبة والابتلاء في الإنسان، والنية هذه سر متجاوز للظروف والمجتمع والبيئة والتربية، وهي المبادرة المطلقة والابتداء المطلق الذي أعتقه الله من كل القيود، إنها روحك ذاتها والكاشفة عن حقيقتك بمثل ما تكشف بصمة أصبعك عن فرديتك، ولأن فيك ذلك القبس من الله ولأنه كرّمك بحرية الإرادة فأنت محاسب على هذه الحرية، وهذا منتهى العطاء الإلهي والعدل أيضاً.

ومن هنا يتبين أن الله تعالى يترك المبادرة بالنية دائماً لك، ثم بعد ذلك يأتي قضاؤه فيزيدك مرضاً إذا أضمرت المرض في قلبك، ويهديك إذا بادرت في سريرتك بميل إلى هدى، ويصرفك عن الهدى إذا أضمرت الكبر. والله لا يمكن أن يفرض عليك نيّة بالسوء أو بالظلم ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]. وفي هذا يقول حديث نبوي شريف عن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه): ((لا يفضلكم أبو بكر بصلاة ولا بصيام ولكن بسر وقر في قلبه)).

ويقول الله تعالى في هذا الصدد ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[2]. فالله لم يخلق الحسد في قلوبهم ولم يودعه ضمائرهم، ولكنهم يحسدونكم من عند أنفسهم، والعبارة هنا صريحة ﴿ مِّنْ

---

(١) سورة الأعراف/ الآية: ٢٨.

(٢) سورة البقرة/ من الآية: ١٠٩.

﴿ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ وهي تنفي التدخل الإلهي وتقطع بوجود منطقة داخلية تركها الله حرة، وكذا الحال في الشيطان فإنه لا يستطيع أن يدخل قلبك إلا إذا فتحت له الباب اختياراً وكنت من الغاوين، ولكنه لا يستطيع أن يقتحم قلبك جبراً وقسراً. إن الله قد كفل لهذا القلب الحماية ولم يجعل أحد من جند الخير أو الشر سلطاناً قاهراً عليه إلا إذا أراد صاحب هذا القلب أن يستضيف ويدعو ويحتضن دواعي الشر أو دواعي الخير.

يمكنك أن تجرني بالقوة على أن أرفع يدي أو أقف مرغماً أو أهتف باسمك، ولكن لا يمكنك أبداً أن تجبرني على أن أحبك، ويمكنك أن تكره عاملك ولكنك لا تستطيع أن تجبره على أن يضمر لك ما تريد.

إن حرية الفعل حقيقة، والقدر حقيقة، والمشكلة هي أن نحاول أن نفهم هذا الازدواج وكيف لا يلغي الواحد منه الآخر، كيف لا يلغي القدر الحرية، ولا يلغي الحرية القدر. وهذا أمر نستشفه من الآيات القرآنية، ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[1]. فالله لم يجعل إبليس إبليساً، وإنما إبليس هو الذي اختار لنفسه الكبرياء والجبروت والتعاظم حين رفض أن يكون في خدمة آدم، إختار إبليس لنفسه الغرور بغير علم ولا حق، فاختاره الله ليغرر الناس (وقضى عليه قضاءً من جنس ضميره). وبالمقابل أبصر الله النقاء والطهر في قلب محمد (ﷺ)، فاختاره نبياً للهداية ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[2]. ثم تأتي الآية القرآنية عن المنافقين وما حدث من تكاسلهم في نصرة الرسول وعدم الخروج معه في غزواته ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾[3]. ها هنا منافقون بالقلب لا يريدون نصرة نبيهم فقضى الله عليهم بمثل نيتهم، فلم يرد

---

(١) سورة ص/ الآية: ٧٦.

(٢) سورة العنكبوت/ من الآية: ٦٩.

(٣) سورة التوبة/ الآية: ٤٦.

الله تعالى لهم الخروج كما لم يريدونه هم لأنفسهم فثبطهم وقيل لهم اقعدوا مع القاعدين.

ثم آية أخرى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[1]. ومعنى ذلك أن لله تعالى سلطان بين المرء وقلبه، فهو يحول بين المرء وقلبه بالتمكين ليقدم له التيسيرات إذا كانت نيته صالحة، ويقدم له الإحباط لطفاً منه ورحمة ليقي أحباءه السيئات. ثم تكون الرجعة في النهاية إليه يوم القيامة فيحاسب كل إنسان على وفق سريرته، فقد كان كل منا حراً في سريرته وهو عنها المسؤول، إذن فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

(١) سورة الأنفال/ الآية: ٢٤.

الفصل الثاني

التدرج الإيماني لآيات الترهيب في أمور الحياة والمجتمع

إن ثمرة العقيدة السليمة مجتمع سليم، فصاحب العقيدة السليمة التي أسلم لربه وآمن به غيبياً وسلك تعاليمه كيف يكون في حياته ومجتمعه وهو يعرف أن الدنيا مرحلة من مراحل حياة الإنسان الأبدية مع الله الواحد الأحد.

لقد نشأ لدينا إنسان مؤمن بمعنى الكلمة بعدما آمن بربه وأسلم الأمر له سبحانه والتزم بتعاليمه، فهو لا يتبع خطوات الشيطان، فيغض بصره ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾[1]. وهو لا يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وهو يعرف حدود الله فلا يغفل عن ذكر الله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[2]. ثم إن المجتمع الذي يقيمه الإسلام للمؤمنين، أصحاب العقيدة السليمة لهو مجتمع رفيع فلا مسخرة ولا تنابز بالألقاب ولا غيبة ولا نميمة، والمؤمن لا يأكل مال اليتيم الذي تحت وصايته ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾[3]. ثم هو لا يقتل ولا يزني ولا يرائي ولا يرابي ولا يبتغي حكماً غير حكم الله ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[4].

هذا هو المجتمع الذي ينشأ من تلك العقيدة السليمة لأن صاحبها عرف ربه فأبعد عنه خبائث الأرض في هذه الحياة القصيرة من تلك الرحلة الأبدية مع الله العظيم.

---

(١) سورة النور/ من الآية: ٣٠.

(٢) سورة المنافقون/ الآية: ٩.

(٣) سورة النساء/ من الآية: ٢.

(٤) سورة المائدة/ الآية: ٥٠.

١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾(١).

في ثنايا التوجيهات والتشريعات القرآنية التي يتألف من مجموعها المنهج الرباني الكامل للحياة البشرية الذي يقوم على الخبرة المطلقة بالنفس البشرية، تبرز هناك تكاليف يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة، لا تتجاوز الطاقة، ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه، فينشأ بذلك مجتمع مترابط متواد متضامن تربطه آصرة العقيدة التي تذوب فيها الأوطان واللغات والألوان وسائر هذه الأواصر العرضية التي لا علاقة لها بجوهر الإنسان.

هذا المجتمع النظيف الذي لا تشيع فيه الفاحشة ولا يتبجح فيه الإغراء ولا تروج فيه الفتنه، ولا ينتشر التبرج، ولا تتلفت فيه الأعين على العورات، ولا ترف فيه الشهوات على الحرمات، ولا ينطلق فيه سعار الجنس كما تنطلق في المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً. ذلك المجتمع الذي يسمع كلام الله يقول ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾(٢).

وإذا أمعنا النظر في هذه الآية لوجدنا أن مجرد إرسال النظر لا ضرر فيه، ولكن الضرر يأتي مما يجري في القلب والعقل نتيجة إمعان النظر، أن تتخطف الشهوات العقل والقلب فيفقد الإنسان هدفه، وينسى وجهته ويتشتت، مثل هذا الإنسان فقد حريته ولم تعد المسألة مسألة نظرة، وإنما أصبحت عبودية وذل وتبعية، هنا وقع الضرر عندما نظر الفرد بشهواته لا بعينه، ولا ضرر في إنسان تقوده عيناه في طريقه

(١) سورة البقرة/ الآيتين: ٢٠٨ -٢٠٩.

(٢) سورة النور/ الآيتين: ٣٠ -٣١.

وإنما الضرر في الإنسان الذي تقوده شهواته.والرجل المشغول القلب بالله يرى الجمال فيرى فيه الخالق الذي صور وليس المخلوق، فلا تكون نظرته حلال فحسب، بل تكتب له حسنة ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[1].

وغض البصر ليس فقط عما يتعرى من الجسد، وإنما هو غض للبصر عما في يد الناس من مال ونعمة، وهو الحياء والترفع عن النزول بالنفس إلى مواطن الشهوة والحسد والحقد والغيرة. وجوهر الدين هو أن تتجاوز نفسك وتتخطاها وتتكرها وتكبح شهواتك وتلجم أهواءك وتتحرر من أطماعك وتخلص من غرورك وكبرك وعنادك، فكل هذه أغلال والذي يحرمها ليخلصك من أسرها.

والمجتمع الذي يسمع ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾[2]، و ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[3]، فالإسلام هذب سطوة الجنس، وجنب النفس ضرره، وحدّ من ضراوته، وقد وجه الإسلام خلق المسلم إلى اعتناق العفة سلوكاً له ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[4].

ثم حاول الإسلام أن يرسم منهج العفة عندما حرّم الخلوة بمن لا تحلّ ولو كانت من أفراد الأسرة، فعندما سئل الرسول (ﷺ) عن شقيق الزوج يخلو بامرأة أخيه بحكم سكن الأسرة، قال النبي (ﷺ): ((الحمُ الموت)) والحمُ هو شقيق الزوج، والموت هنا موت الفضيلة والعفة. لذلك طلب القرآن من المسلم شدة التحفظ لا لعدم الثقة في عزيمة المسلمين ولكن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، فمن رعى غنمه بجوار أرض الأمير، فلا يأمن من شرور بعض غنمه ودخولها أرض الأمير، والنفس أكثر شروداً وأسرع إلى الانفلات. لذلك نرى أوامر الله بالابتعاد عن ساحة الإغراء.

---

(١) سورة غافر/ من الآية: ٦٤.

(٢) سورة الإسراء/ الآية: ٣٢.

(٣) سورة الأنعام/ من الآية: ١٥١.

(٤) سورة النور/ من الآية: ٣٣.

وعندما يتكلم القرآن الكريم عن الحدود الإلهية المتعلقة بالجنس يقول ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾[1]، فهنا يحذر القرآن الكريم من مجرد القرب منها. أما حين يتكلم عن حدود الله المتعلقة بالأسرة أو جوانب الحياة الأخرى فيقول ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾[2].

وقد حاول الإسلام تعقيم البيئة الإسلامية من جراثيم الفاحشة، وذلك حتى تقبر الفاحشة في مكانها، ولا يتلوث المجتمع، ذلك أن إشاعة الفاحشة بين الناس وفضيحة مرتكبيها تسبب استهانة الفرد بقيمة المجتمع، وجرأته على تكرار الجريمة، لأن فضيحته في المجتمع بلدت شعوره بالحياء.

كما أن الفاحشة إذا كثرت إذاعتها في مجتمع فإن رائحتها تصيب المجتمع بزكام، فلا يصبح يتعفف عن رذيلة، ولا يترفع عن عصيان، لذلك طلب القرآن الكريم الستر على هذه الجريمة، علاجاً لها لا حباً لفاعلها، فلو شهد اثنان على رجل بأنه قتل فلانا من الناس فإن المشهود عليه يقاد إلى الإعدام، أما الشهادة في الزنا فلا بد من شهود أربعة وقل أن يرتكب أحد الزنا في وضع يمكّن أربعة من الرجال مشاهدته في حالة تلبس، ووقّع الإسلام العقوبة على الشهود إذا لم يتم عدد الشهود أربعة، وذلك حتى لا يسارعوا إلى الإدلاء بالشهادة فربما لو ستروا على الزاني لدفعوه إلى التوبة، وفي الحديث الشريف: ((من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن تتبع عورة أخيه تتبّع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جدار بيته)).

هذه هي حلول الإسلام في مواجهة الزنا والفواحش أما الغرب فإنهم عالجوا مشكلة الجنس فوضعوا حلولاً ضاعفت المرض، وزادت الطين بلة؛ فقالوا إن الانطلاق الجنسي ورفع الحظر عنه هو العلاج الوحيد لهذه المشكلة، فحطموا كل قيد وأباحوا كل شيء للجميع، فانطلق الشباب بلا رقابة ولا حظر، واعتقد العلماء أن المشكلة

---

(١) سورة البقرة/ من الآية: ١٨٧.

(٢) سورة البقرة/ من الآية: ٢٢٩.

انحلت، وان طاقات الشباب ستتوجه للإنتاج، ولكن سرعان ما خاب أملهم، لقد أصيب الشباب بالسّعر الجنسي، وزاد نهمهم، وانطلقوا من الممارسة الجنسية إلى الخيال الجنسي، عندما عشقوا الأفلام العارية والصور الخليعة، بل وصلوا إلى الشذوذ الجنسي لإشباع غريزة النفس الباحثة عن الممنوع والراغبة في كل ما منع. فكثرت الأمراض النفسية عندهم وكثر الانتحار، وأصيبت المرأة الغربية بخيبة أمل كبيرة جراء انصراف الشباب إلى الزواج وإقامة الأسرة. وإذا كان هذا الأمر عجيباً، فأعجب منه أن يجرب العالم كل وسيلة للعلاج إلا منهج الإسلام لا لشيء إلا لأنه الإسلام.

ونمضي مع ذلك المجتمع الذي أراده الله تعالى للبشرية بدل الزيغ واتباع خطوات الشيطان، فالله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾(١).

الخاسرون وإن جمعوا أموال الدنيا، لأن من ربح كل الدنيا وخسر نفسه فقد خسر خسراناً مبيناً، وأمام هذا النداء تتساءل النفس ماذا أفعل لأؤمّن مستقبل أولادي، وهنا يرشدهم القرآن الكريم إلى حصن الله المتين سلّموا أنفسكم لله واطلبوا منه الرعاية لأولادكم ولن يضيع من دخل حمى الله ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ﴾(٢). إذن بتقوى الله واجتناب محارمه وكسب الرزق الحلال، وعليهم أن يقولوا كلمة الحق صادقين في المعاملات والحديث، وكم من أسر تفرّق شملها، وهوى بناؤها، وتصدع جمعها، بمجرد موت من جمع المال، وذهب هو إلى جزاء الآبقين، وذهب أولاده إلى هاوية الضياع.

لقد علمتنا الحياة أن من رعى ماله وضيّع ولده فقد ضيّع ماله وولده، ولا نعرف ضياعاً للأولاد أكبر من إطعامهم الحرام، وتربيتهم على ذلك.

---

(١) سورة المنافقون/ الآية: ٩.

(٢) سورة النساء/ الآية: ٩.

ومن ناحية أخرى يلمس القرآن الكريم طبيعة نفوس الأبناء ليعالج بلادة همّتهم وتقاعسهم عن خدمة الآباء، ونلاحظ أن القرآن الكريم يربط بين الوالدين وتوحيد الله، إن الله واهب الحياة ولكن الوالدين هم السبب ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[1]. وقد اختار القرآن الكريم كلمة (إحساناً) بالذات لأن اللغة ليس فيها كلمة تعطي عطاء هذه الكلمة، فهذه الكلمة تعني رقة المعاملة، وحسن رقابة الله، ومُريد العون المادي، ثم العفو عنهم. وهذه دعائم الخلق الكريم والدين الكامل، لذلك طلبها الله من الأبناء عندما اختار هذه الكلمة.

وهكذا أدرك الإسلام سر الفطرة في الرجال، والتي تعتبر المولود امتداداً لحياة الأب، وتجديداً لها، فهم ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، والآباء للأبناء أرض ذليلة وسماء ظليلة، وقد أقسم الله بالوالد وما ولد، حرّم الله قتلهم وتعهد برزقهم، وأعطى الله الأبناء حقوقاً على الآباء ومنها: اختيار أمهات عفيفات، وأن يختار الأب لابنه اسماً جميلاً، حتى أن رسول الله (ﷺ) سأل رجلاً عن اسمه فقال: إسمي (حزْن) أي الوعر من الأرض، فقال له النبي (ﷺ): ((بل سهل)). ومن الحقوق أيضاً أن يحفظ الأب ابنه شيئاً من القرآن ليهذب بها خلقه.

إن ضياع الأولاد وعدم العناية بتربيتهم ذنب عظيم، والنبي (ﷺ) يقول: ((كفى بالمرءِ إثماً أن يضيع من يعول)). وعلى الآباء أن يفتحوا قلوبهم لأبنائهم فلقد نزل النبي من على منبره ليأخذ الحسن والحسين (ﻬﻤﺎ) لأنهما يتعثران في المشي، ورفعهما على المنبر. وكان يخفف من الصلاة إذا سمع طفلاً يبكي وأمّه تصلي مع النبي. هذا من حق الأب أن يشير على ابنه بالزوجة الصالحة، ولا يفرض عليه عروسه.

ونمضي مع فقرة أخرى من فقرات المجتمع القويم الذي لا يتبع خطوات الشيطان وما حرم الله ونرى في هذه الفقرة أن الله يحذرنا من كلام الفاسق وما ينقل من

---

(١) سورة النساء/ من الآية: ٣٦.

أخبار ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[1]. ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب، وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما تقل من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها، والأصل أن الجماعة المسلمة موضع ثقة، وأما الفاسق فهو موضع شك حتى يثبت خبره، إذن فلا يجوز التصرف في أخبار الفاسق لأنه في موضع غير الثقة.

وقد نزلت الآية في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله (ﷺ) على صدقات (بني المصطلق) فتلقوه بالصدقة، ولكن الوليد بن عقبة عاد إلى رسول الله (ﷺ) وقال إنهم أبوا أن يدفعوا الصدقة وإنهم ارتدوا عن الإسلام وأعدوا العدة لقتال المسلمين، فبعث رسول الله (ﷺ) خالد بن الوليد (رضي الله عنه) ليلاً عليهم فرأى أنهم متمسكون بالإسلام ولما أطل الصبح أتاهم خالد بن الوليد (رضي الله عنه) فرأى الذي يحبه منهم، فرجع إلى رسول الله (ﷺ) وأخبره الخبر فنزلت هذه الآية، فكان رسول الله (ﷺ) يقول: ((التثبت من الله والعجلة من الشيطان))[2].

ونستمر مع المجتمع الفاضل الذي أراده الله في الأرض ليكون الخليفة حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾[3].

---

(١) سورة الحجرات/ الآية: ٦.

(٢) هكذا أثبته ابن كثير في التفسير.

(٣) سورة الحجرات/ الآيتين: ١١-١٢.

إن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع فلا مسخرة ولا تنابز بالألقاب ولا ظن بغير محله ولا تجسس ولا غيبة، فلكل فرد كرامة لا تمس، وهي من كرامة المجموع، ولمز أي فرد هو لمز لذات النفس لأن الجماعة كلها وحدة وكرامتها واحدة، والقرآن هنا يهتف للمؤمنين وينهاهم عن المسخرة بأي قوم وبأي رجال وبأية نساء فلعلهم خير منهم عند الله، وفي هذا التعبير إيحاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الناس عن بعضهم البعض غير حقيقية، فهناك قيم أخرى خافية عليهم لا يعلمها إلا الله.

وفي الآية التي تنهى عن سوء الظن فإنها تقيم سياجاً آخر في المجتمع الإسلامي الفاضل حول حرمات الأشخاص وكراماتهم وحرياتهم، من خلال عدم ترك النفس لكل ما يهمس فيها حول الآخرين من ظنون وشكوك. وبهذا يطهر القرآن الكريم الضمير من أن يتلوث بالظن فيقع في الإثم.

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد فحسب، أن يضع الإسلام سياجاً حول حقوق الناس الذين يعيشون بكنفه، بل لا يصبح الظن أساساً لمحاكمة الناس وأخذهم بجريرة لم يقترفوها، والرسول الكريم ﴿ﷺ﴾ يقول: ((إذا ظننت فلا تحقق))[(١)]. ومعنى هذا أن يظل الناس بكرامتهم أبرياء حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤخذون عليه لا كما يحصل في يومنا هذا؟؟؟

فأي مدى من صيانة كرامة الناس وحرياتهم تعالج هذه النصوص القرآنية الحكيمة في إرساء دعائم مجتمع يسوده الاستقرار والطمأنينة في الحياة، وأين أقصى ما تتعاجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا الذي هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا، وقام عليه المجتمع الإسلامي فعلاً، وحققه في واقع الحياة، بعد أن حققه في واقع الضمير.

---

(١) أخرجه الطبراني.

ثم يستطرد في ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتناب الظنون ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ والتجسس هو الحركة للظن، وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات، والإطلاع على السوءات، والقرآن يقاوم هذا العمل الدنيء من الناحية الأخلاقية، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوءاتهم، ولكن الأمر أبعد من هذا أثراً، فهو مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسة في نظامه الاجتماعي.

ففي المجتمع الإسلامي يعيش الناس آمنين على أنفسهم، وبيوتهم وعوراتهم، ولا مبرر لانتهاك هذه العورات، حتى ذريعة التحقيق معهم في جريمة ما، فليس من حق أحد أن يظن أو يتوقع أو غير ذلك من المبررات الواهية، وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند تلبسهم فيها ساعة حدوثها وانكشافها. يقول النبي (ﷺ) في هذا الشأن: ((لا تجسسوا، خذوا بما ظهر لكم، ودعوا ما ستر الله))، ويقول (ﷺ): ((إنك إذا اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم)).

بعد ذلك يجيء النهي عن الغيبة في تعبير عجيب يبدعه القرآن الكريم إبداعاً ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ ﴾ لا يغتب بعضكم بعضاً، ثم يعرض مشهداً تتأذى أشد النفوس وأقل الأرواح حساسية، مشهد الأخ يأكل لحم أخيه – ميتاً – ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز.

روى أبو داود بإسناد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ﷺ): (لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت من هؤلاء يا جبرائيل، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم).

ولما اعترف ماعز بالزنا هو الغامدية، ورجمهما رسول الله (ﷺ)، بعد إقرارهما متطوعين وإلحاحهما عليه في تطهيرهما، سمع رسول الله (ﷺ) رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستره الله فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، فسار رسول الله (ﷺ) حتى مر بجيفة حمار فقال أين فلان وأين فلان، انزلا فكلا من

جيفة هذا الحمار، قالا: غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا، قال (ﷺ): ((فما نلتما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها))[1].

ونمضي مع النصوص القرآنية التي تحذر من خطوات الشيطان حيث تقول ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾[2]. فلقد عالج القرآن الكريم هذا الأثر المصاحب للجاهلية في أكل أموال اليتامى ظلماً وتبديل الطيب من أموالهم بالخبيث، وما تزال أموال اليتامى تأكل بشتى الطرق، وشتى الحيل، من أكثر الأوصياء في زماننا هذا، على الرغم، من كل الاحتياطات القانونية، ومن رقابة الهيئات الحكومية المخصصة لهذا الغرض، وهذا الأمر لا يفلح ولا يعالج إلا بالتقوى والضمير الحي من قبل الوصي، فالضمير هو رقيب على صاحبه، فينبغي عليه أن لا يخون الله ويعصه وهو يتعامل أياً كان مع أموال اليتامى.

ونستطرد من النصوص القرآنية، ونرى أن الخمر هي أحدى وسائل الشيطان إذ يقول الله سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3].

إن هدف الشيطان، وغاية كيده، إيقاع العداوة والبغضاء في الصف المسلم من الخمر والميسر، كما أنها صد عن ذكر الله، وهذه هي الأهداف التي يريدها الشيطان من الخمر والميسر بين الناس، فالخمر بما تفقد من الوعي، وبما تثير من عرامة اللحم والدم، وبما تهيج من نزوات ودفعات، تثير الخسارات والأحقاد، مهما جمعت بين القرناء في مجال العربدة والانطلاق اللذين يخيل للنظرة السطحية أنهما سعادة وأنس.

---

(١) رواه ابن كثير في التفسير، وقال: إسناده صحيح.

(٢) سورة النساء/ الآية: ٢.

(٣) سورة المائدة/ الآية: ٩٠.

ثم تقول لنا النصوص القرآنية التي تحذرنا من اتباع خطوات الشيطان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1].

وفي الحقيقة لم يبلغ تفظيع أمر أراد الله إبطاله من أمور الجاهلية كما في الربا، فلقد كان للربا مفاسده وشروره في الجاهلية، ولكن الجوانب القبيحة من وجهه الكالح ما كان اليوم في عالمنا المعاصر، فوجهه الدميم اليوم مكشوف في مجتمعنا الحديث، إنه فاجعة في حياة البشرية في أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها، وهذه البشرية الرابية اليوم تتلقى حرباً من الله على شعوبها وأفرادها، وهي لا تعتبر ولا تفيق. إنهما نظامان متقابلان، النظام الإسلامي، والنظام الربوي، وهما لا يلتقيان في تصور، ولا يتفقان في أساس، ولا يتوافقان في نتيجة.

فالإسلام يقيم نظامه الاقتصادي ونظام الحياة كلها على تصور معين يمثل الحق الواقع في هذا الوجود، بينما يسحق النظام الربوي البشرية سحقاً، ويشقيها في حياتها، أفراداً وجماعات ودولاً وشعوباً، ويحطمها أخلاقياً ونفسياً وعصبياً.

ومما تقوله لنا النصوص القرآنية ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾[2]، في الحقيقة هذه الآية الكريمة نزلت بشأن اليهود الذين بخلوا بالوفاء بتعهداتهم، أما مدلول الآية فعام، يشمل الذين يخلون بما آتاهم الله من فضله، ويحسبون هذا البخل خيراً لهم لأنه يحفظ لهم أموالهم، فلا تذهب بالإنفاق، والنص القرآني ينهاهم عن هذا الحسبان الكاذب، ويقرر أن ما كنزوه سيطوقونه يوم القيامة ناراً، فهم لا يبخلون بمالهم بل هو مال الله أتاهم به وأغناهم، فكيف يقابلون هذا الفضل بالجحود والأنانية، ثم إن ما يكنزونه آيل إلى زوال والله يرث الأرض وما عليها، ثم لا يبقى لهم إلا القدر الذي أنفقوه ابتغاء مرضاة الله، فيبقى مدخراً لهم عنده، بدل من أن يطوقوا به يوم القيامة.

---

(١) سورة آل عمران/ الآية: ١٣٠.

(٢) سورة آل عمران/ الآية: ١٨٠.

ومما حرم الله ونهانا عن أكله لحم الخنزير إذ قال ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١].

لقد اتفق أئمة المسلمين قديماً وحديثاً على أن سبب تحريم لحم الخنزير هو احتواء لحم الخنزير على ديدان تنقل إلى جسم الإنسان وتصيب كبده بالعطب، وهذا سبب حقيقي وواقعي، ولكن هذا فيما يتعلق بالخنازير الوحشية، أما اليوم فإن الخنازير تربى في حظائر تحت مراقبة صحية شديدة، وإن أي كمية من اللحوم لا يسمح ببيعها ما لم تتعرض مختبرياً إلى فحوص وتحاليل تؤكد خلوها من أية شائبة جرثومية كانت، ويعتمد الغرب اليوم في استهلاكه للحوم على لحم الخنزير بما يعادل (٨٠%) من الاستهلاك العام وذلك لسهولة تربية الخنازير ورخص تكاليفها.

ولكن الله سبحانه وتعالى علام الغيوب ويعلم أن اليوم الذي يصبح فيه لحم الخنزير أحياناً أنظف من لحم الضأن سيأتي حتماً، إذا لماذا حرم العليم القدير لحم الخنزير ؟؟

قام باحثان أمريكيان بدراسة أنواع الديدان الشريطية لمدة خمسة عشر عاماً، وقد حفلت الدراسة بتجارب مضنية على تلك الديدان، لقد وضعا الديدان في وعاء شفاف إلى جانب مصباح، وأخذا بإضاءة المصباح ثم إطفائه، ولما كانت الديدان الشريطية تتحسس وتخشى الضوء فإنها تتكمش على نفسها عند إضاءة المصباح، وبعد أيام تعودت الديدان على هذه الحالة ولم تعد تتحسس، وأدركت أن الضوء لن يمسها بسوء.

تطورت هذه التجربة بأن صاحب الضوء صدمة كهربائية خفيفة جداً بالنسبة للديدان، وبعد تكرار التجربة أخذت الديدان تتحسس بالضوء حتى وإن غابت الصدمة الكهربائية. بعد ذلك قطع الباحثان الديدان الشريطية إلى قطع صغيرة، بعد ذلك

(١) سورة البقرة/ الآية: ١٧٣.

أطعماها لديدان لا تعرف شيئاً عن تلك التجربة الضوئية والتي تحمل صدمة كهربائية، وهنا أصيب الباحثان بالصدمة حينما تحسست الديدان الجديدة بالضوء.

فتساءل الباحثان عن كيف انتقلت ذكريات الديدان إلى ديدان جديدة، ثم جرب الباحثان هذه التجربة على الجرذان، إذ دربت الجرذان على الضغط على زر ذي لون خاص من أجل الحصول على الطعام إذا ما شعرت بالجوع، عندها أهلك الباحثان عدداً من تلك الجرذان المدربة، واستخلصوا مصلاً من أدمغتها حقنت في بطون الجرذان غير المدربة، والعجيب في الأمر أن الجرذان غير المدربة قامت بالضغط على الزر الملون عندما كان يداهمها الجوع، ثم أجريت تجارب مماثلة على السمك والأرانب.

فخلص الباحثان إلى أن التعلم تم عبر انتقال خصائص الحيوان الهالك إلى الحيوان الباقي على قيد الحياة، أي أن الحيوان المفترس أو الحيوان الذي ينقل له إرادياً أو لا إرادياً يمكنه الحصول على كافة معلومات وخصائص عدوه.

هذا الكلام كله يمكننا أن نعرف خصائص الخنزير، والذي يعلم البشر على مختلف عقائدهم وألوانهم، أن الخنزير هو الحيوان الوحيد الذي لا يغار على أنثاه، فعندما ينتهي من لقاح أنثاه يرى خنزيراً آخر ينكح أنثاه فلا يبالي بذلك ولا يهتم، وهنا بيت القصيد.

إن الله سبحانه حرم علينا لحم الخنزير لأنه يعلم أن من يأكل لحم حيوان ما ذا خصائص معينة فإن تلك الخصائص تنتقل إلى الإنسان، وهذا ما أثبته العلم اليوم، ومع ذلك فإن الغرب يعتمد في استهلاكه للحوم على لحم الخنزير.

وهكذا تستمر النواهي التي نهى الله تعالى المجتمع المسلم عنها من أجل مصلحته لا غير كأن يقول ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٖ ﴾ [1]، ويقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ

(١) سورة لقمان/ الآية: ١٨.

وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1]، ويقول ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

وهكذا نرى أن التكاليف التي يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة، لا تتجاوز الطاقة، ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه، ولا تنسى حاجة واحدة من حاجات تكوينه الجثماني والروحي لتلبيها في يسر وسماحة ومن ثم فلا يحار ولا يقلق في مواجهة تكاليفه، ويمضي في الطريق إلى الله تعالى في طمأنينة وسلام.

٢. ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠ ﴾[3].

يتناول هذا الدرس أخطر قضية من قضايا العقيدة الإسلامية، والمنهج الإسلامي، ونظام الحكم والحياة في الإسلام، إنها قضية الحكم والشريعة والتقاضي، حسب مواثيق الله وشرائعه التي إستحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية الواحدة بعد الأخرى وكتبها على الرسل، وعلى من يتولون الأمر بعدهم، ليسيروا على هواهم، أم يكون ذلك كله للأهواء المتقلبة والمصالح التي لا ترجع إلى أصل ثابت من شرع الله. ومن الحقائق المعروفة لرجال القانون أن جميع الدساتير الرائجة في هذا العصر تفقد أية أسس علمية أو نظرية تجيز بقاءها، ويرى الأستاذ (فولد) صاحب كتاب (القانون يبحث عن نفسه) أن القانون لم يكشف عن نفسه بعد.

وقد وضعت كتب لا حصر لها حول هذا الموضوع بالذات، وبذلت عقول جبارة من علمائنا أوقاتها في سبيل الحصول على مقومات القانون، ولكن هذه الجهود لم توفق أبداً. وقد انقسم خبراء التشريع إلى مدارس فكرية كثيرة، والسبب وراء هذا الانقسام والاختلاف هو عدم توصلهم إلى أساس صحيح يمكن إقامة التشريع عليه، إنهم يجدون أن القيم التي يحاولون جمعها في هيكل الدستور يستحيل وضعها في

---

(١) سورة النور / الآية: ٢٧.

(٢) سورة النور / الآية: ١٩.

(٣) سورة المائدة/ الآية: ٥٠.

ميزان واحد.ويعبر الاستاذ (فريدمان) عن هذه المشكلة قائلاً (إنها لحقيقة، أن الحضارة الغربية لم تجد حلاً لهذه المشكلة، غير أن تتزلق من وقت لآخر من نهاية إلى نهاية). وقد لاحظ (جون أستين) أن الدستور لا يصبح نافذ المفعول إلا إذا كانت تسنده قوة من ورائه، لذلك عرف القانون على أنه (الحكم الذي أصدره رجل رفيع المنزلة سياسياً لمن هو أدنى منه في المرتبة السياسية).

وقد أصبح التشريع بناءً على هذا التعريف مرسوماً لصاحب السيادة، ولكن العلماء شنوا حملة كبيرة على هذه الفكرة، وقالوا أنه لا يمكن منع انحرافات الحكام إلا إذا كان – رضا الشعب العام – كدعامة أساسية في التشريع، وأنكروا أي قانون لا يحرز رضا الجماهير، إلا أنهم وقعوا بمطبات كثيرة، وعلى سبيل المثال لم يتمكن الأمريكيون من إدخال مشروع قرار يحرم الخمر، لأن الشعب لم يرضَ عنه، كما اضطر البريطانيون إلى إدخال تعديلات هامة في قانون عقوبة القتل، واضطروا إلى إباحة أنواع محرمة من العلاقات الجنسية على الرغم من ضجيج المثقفين، واحتجاج علماء القانون.

وهكذا نرى أن الإنسان لن يستطيع الكشف عن أساس واقعي للتشريع، رغم الجهود المبذولة في هذا الصدد. ويتساءل باتون عن المصالح التي لا بد للدستور المثالي أن يحافظ عليها، أنه سؤال يتعلق بالقيم ونحن كثيراً ما فشلنا في ميزان القيم التي تجعل القانون مرحّباً به من قبل الجميع. والحقيقة أنه ليس هناك من أساس لشيء من النظم إلا الدين، ولكن الحقائق الدينية تصلح كعقيدة ووجدان ولا يمكن قبولها على أساس الاستدلال المنطقي.

وهذه التجربة تدعو الإنسان إلى الجهة التي انحرف عنها منذ قرون، فقد كان الدين يسهم إسهاماً فعالاً في دساتير الزمن القديم، ويرى خبير القانون المعروف السيد هنري مين (إنه لا يوجد مثال واحد من القوانين، التي تم تسجيلها كتابة من قانون الصين إلى بيرو، إلا وكان ذا علاقة بالطقوس الدينية والعبادات منذ بداية أمره).

لقد آن الأوان أن نعترف بأن البشر لا يستطيعون وضع دستور لهم بدون هدى الله، وبدلاً من الجهود التي لا تأتي بنتائج مثمرة علينا أن نعترف أن الدين هو المعيار الحقيقي للعدل، والأساس الذي يحمله الدين لإعطاء العدل صورة عملية ينفرد هو به في حقيقته وبساطته.

إننا نجد في الدين جميع الأسس اللازمة التي يبحث عنها المشرعون لصياغة دستور مثالي، ولو أننا خولنا هذا الامتياز للحاكم لمجرد كونه حاكماً، فليس هناك أساس نظري وعملي يجيز للحاكم أن يضع دستور البلاد لأنه يغلب عليه القوة في الإحكام، ولو أننا خولنا سلطة التشريع لرجال المجتمع فهذا أمر آخر لا يجوز، إذ أننا لو نظرنا إلى المجتمع ككل فليس جميع أفراده من العلماء والعقلاء وأصحاب التجارب، وهو ما لا تستطيع الجماهير الحصول عليه.

والذي يستجيب لهذا التحدي الخطير الذي قد يدمر سعادة البشرية كلها هو الله وحده، خالق الأرض والكون، فهو وحده سبحانه الذي يليق به أن يضع دستور حضارة الإنسان ومعيشته، وليس من أحد غيره يمكن تحويله هذا الحق.

إنها مشكلة مصيرية والحل الوحيد لها هو التشريع الإلهي الذي يمنحنا العناصر الأساسية الضرورية، فهذا الشرع يضع جوانب أساسية جذرية، ثم يترك الباقي للاجتهادات المختلفة حسب الزمان والمكان.

ومما لا بد أن يتوفر لأي دستور أن يكون لديه دليل معقول يستند إليه، لاعتبار عمل ما (جريمة)، ويقول الدستور الذي وضعه الإنسان، أن الجريمة هي (كل عمل يضر بالأمن العام، أو نظام الحكم القائم) والتشريع الإنساني لا يجد أساساً غير هذا الاعتبار عمل ما جريمة، وقد دفع هذا الأساس القانون الجديد إلى إقرار أن جريمة (الزنا) ليست جريمة ما دامت تتسم برضا الطرفين، إلا إذا تمت بالإكراه والغصب.

إن جريمة الزنا تفشي فساداً كبيراً في المجتمع ، فهي تخلق مشكلات أطفال الحرام (غير الشرعيين)، وتضعف روابط الزواج، وهي كذلك تصدر عن عقلية تفضل اللذات السطحية في الحياة، وتربي عقلاً خائناً، وتخلق السرقة واللصوص، وتروج الاغتيالات والانتحار والخطف، ومن ثم تفسد المجتمع كله، ولكن القانون رغم ذلك لا يعتبر الزنا جريمة ما دامت برضا الطرفين.

ولم يستطع القانون الجديد أن يحرم (الخمر)، لأنه يؤمن بأن الأكل والشرب حق من الحقوق الطبيعية للإنسان، وهو في ذلك ولا يتمكن القانون من إيقافه، إلا إذا اعتدى شارب الخمر على الناس أو الممتلكات فعندها يصبح (شرب) الخمر جريمة.

وهذه الخمر تضر بالصحة، وتبدد أموال الناس، وتؤدي بمدمنيها إلى كوارث اقتصادية محققة، وتضعف الشعور الأخلاقي، حتى إن الإنسان يتحول إلى حيوان رويداً رويداً، والخمر خير مساعد للمجرمين فهي تشل الإحساسات، حتى يستطيع الإنسان اقتراف أية جريمة من السرقة والقتل، وهدر العصمة، ولكن القانون الإنساني رغم هذه المعايب الشنيعة لم يتمكن من تحريم الخمر بحجة أنها حق من حقوق الإنسان الطبيعية.

والقانون مرتبط بالأخلاق، ولتوضيح ذلك نأخذ على سبيل المثال: لو أن قضية طرحت أمام القانون وتعمد الفريقان الكذب هما وشهودهما فماذا يفعل القاضي، أنه لا يستطيع أن يتبين الصدق أبداً ، ولذلك كان لا بدّ من قانون آخر في صميم البشر يمنعهم من ارتكاب الجرائم، فخوف الشرطة والمحكمة لا يكفي لدرء الجرائم، وإنما لا بد أن يكون هناك وازع في المجتمع يمنع الناس، لأن الرشاوي والمحسوبيات وشهود الزور كل هذا العوامل تعمل على حماية المجرم من أية شرطة أو محكمة إنسانية، وكيف بالمجرم أن يذهب للعقاب وهو فالت من أيدي القانون.

إن الشرع الإلهي يستوفي هذه الأمور بعقيدة الآخرة، التي يحملها الشرع الإلهي، فهي خير وازع عن ارتكاب الجرائم. لأن إحساساً باللوم يعتمل في ضمير

الإنسان فيهلكه إذا أدلى بشهادة كاذبة والوازع الذي يمنع ارتكاب الجرائم ليس هو الدين فحسب، فإنه لا يقدم لنا تشريعاً فقط وإنما يخبرنا أن صاحب هذا التشريع يشاهد كل أعمالنا من خير وشر، فنياتنا وأقوالنا وحركاتنا بأكملها تسجل بواسطة أجهزة المشرع، ولسوف نقف بعد الممات أمامه، ولن نستطيع أن نتفلت من أعمالنا. ولو أننا حاولنا تفادي عقاب الدنيا فسوف نذوق عذاباً مضاعفاً يوم القيامة يفوق عقاب الأرض ملايين المرات.

إن أهم وأكبر أساس في هيكل القانون هو العدل؛ الذي يبحث عنه خبراء القانون منذ قرون طويلة، وهو موجود في القانون الإلهي في أتم الصور وأكملها، والقول بأن عدم اهتداء الإنسان إلى أساس العدل يرجع إلى بحوثنا الناقصة، ولكن الأمر ليس كما يبدو، ولكن الإنسان لا يقدر أن يتوصل إلى العدل لوحده من غير شريعة الله في الأرض.

فالنسبة التي توصل إليها رجال القانون إذا ما قورنت بالعلوم الطبيعية لا تتعدى الواحد بالمائة، وهذه الخيبة لم تنتج عن الإخفاق وإنما نتجت إلى أن الإنسان لا يستطيع التوصل إلى العدل لوحده.

ومن أمثلة العلوم التطبيقية التي توصل الإنسان إليها الصور الفوتوغرافية، فلقد صور الإنسان أو صورة فوتوغرافية في عام ١٨٢٦، وقد بذل العالم الفرنسي الذي اخترع الجهاز ثماني ساعات لكي يصور صورة واحدة، والآن تستطيع آلات تسجيل الأفلام أن تسجل أكثر من ألفي صورة في الثانية الواحدة.

وعند بدء القرن العشرين كانت في شوارع الولايات المتحدة أربع سيارات، والآن نجد ملايين السيارات تمشي على شوارعها الفسيحة.

لقد اخترعنا آلات حساسة يمكنها الكشف عن فارق الوزن الذي يطرأ على كتابة (حرفين) بالحبر، على ورقة من أوراق موسوعة من ثلاثين مجلد. هذه هي حال الإنسان في مجال البحث العلمي، على حين لم يتمكن من إحراز تقدم ولو بمقدار

بوصة في مجال القوانين التي تتعلق بالإنسان. وحسبنا هنا أن نورد بعض الأمثلة التي تبين مدى صدق القول بأن الدستور الإلهي هو وحده الأساس الحقيقي الذي يصلح لأن يكون مصدر القوانين للحياة الإنسانية.

ساوى الإسلام بين الناس عامة بين الرجل والمرأة، الصغير والكبير، الغني والفقير، الوالي والعامل، كلهم متساوون في الإسلام مساواة تامة، لا تعرف الجور والظلم. كل مخلوق، مهما كان، وفي أي زمان أو مكان، شأنه شأن غيره من ذكر أو أنثى، والله سبحانه جعل الناس أمة واحدة مهما كان بلدهم ومهما كانت طبقتهم. وبهذه المساواة التامة بين أبناء الجنس البشري حصن الإسلام المسلمين ضد الانقسامات التي نشاهدها في معظم بلاد العالم، ولعل ما يعتري العالم على فترات من الزمن من جور الأمم بعضها على بعض وبغي الأفراد بعضهم على بعض مرجعه كله إلى عدم المساواة، فما زالت بعض الأمم تعتبر أفرادها من جنس مفضل على أفراد غيرها ومن أصل يعلو على أصل الآخرين، وما زالت التفرقة العنصرية واختلاف الناس سبباً في اندلاع الثورات وعدم الاستقرار، ولقد حاولت أمريكا حتى اليوم إيجاد حل للتفرقة بين البيض والزنوج حقناً للدماء التي تسفح ومنعاً للثورات فلم تفلح، وإن هذه المشكلة لهي أخطر مشكلة تواجه أمريكا وغيرها من البلدان التي تعاني من مثل هذه التفرقة. وعموماً فالسود يعاملون في أمريكا معاملة سيئة جداً إذا ما لاحظنا الأرقام التالية، فأمريكا تمنع ذهاب الأطفال الزنوج إلى مدارس البيض في واحد وعشرين ولاية، أما التكلفة فلا يحصل الأسود على ربع ما يدفع للأبيض في ميدان التعليم. وقد حاولت أمريكا جاهدة أن تقضي على هذه التفرقة العنصرية، وحكمت المحاكم بإلغائها، وأمروا الولايات باستقبال أولاد الزنوج في مدارس البيض إلا أن الشعب الأمريكي الأبيض حارب هذا الحكم بكل ما يملك، حتى أن حاكم ولاية أركنساس دعا رجال الحرس الوطني في ولايته ليمنعوا بالقوة تنفيذ هذا الحكم وقد تم فعلاً منع تنفيذ الحكم.

إلا أن الإسلام لديه الحل لمثل هذه الحالة وأقول (شرط أن يكونوا مسلمين بحق) فلقد حصن الإسلام بلاده من الانقسامات لأنه ساوى بين الناس جميعاً في الحقوق والواجبات. ويقول الكاتب جب في كتابه (مع الإسلام) في هذا الشأن (ليس هناك أية هيئة سوى الإسلام يمكن أن تنجح في تأليف الأجناس البشرية المتنافرة على أساس المساواة، وإذا وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلا بدّ من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع).

ويصل الإنسان إلى ذروة الكمال التي لم تصل إليها شريعة أو قانون، إذ يأمر بإقامة العدل ولو كان الحق في جانب العدو، فهل وصل عدل مثل ما وصل إليه الإسلام في الآية الشريفة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

إن في الدين جوانب لكل الأسئلة التي تؤرقنا في كفاحنا الحضاري أنه يوجهنا نحو المشرع الحقيقي العالم بالفطرة البشرية، فهو يمنحنا أساساً صائباً لكل مشكلة في الحياة، وهكذا يعطينا الدين كل ما نحتاج إليه لبناء الحضارة، في حين لا يتيح لنا الإلحاد والكفر شيئاً، سوى الضياع والفاقة، فهو عظيم لا يجدي نفعاً.

٣. ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[2].

الصعر هو داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها، والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر، حركة الكبر وإمالة الخد عن الناس استكباراً واستعلاءً.

---

(١) سورة المائدة/ الآية: ٨.

(٢) سورة لقمان/ الآية: ١٨.

والمشي في الأرض مرحاً هو المشي في تخايل ونفخة واستعلاء وقلة مبالاة بالناس، وهي حركة كريهة يمقتها الله والخلق، وهي تعبير عن شعور مريض بالذات. إنها حركة تنبئ عن خلق سيء لصاحبها، ويقول الرسول (ﷺ): ((كفى بالموت واعظاً))، فهل من واعظ لهذه النفسية السيئة، وما هو تركيب الفرد الذي يتعالى على أصحابه، حقاً إن الإنسان ساحة جدلية ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[1].

إن الإنسان المتكبر إذا ما تأمل نفسه أمام الكون فهو لا شيء على الإطلاق، فكيف به يتصرف بهذه الأخلاق الضارة له أولاً وللمجتمع ثانياً، إن هذا الإنسان مهما كان حجمه نفخة بخار أو قطرة ماء تقتله، ومع ذلك فخلقه سيئ.

يقول (سبينوزا) في كتابه (الأخلاق مؤيدة بالبرهان الهندسي): (لقد تأملت ما يركض خلفه البشر فرأيته كله وهم وباطل، لأن سعادة الشيء المتحقق لا تدوم وسرعان ما تنطفئ، فطمح قلبي أن أصل إلى سعادة دائمة لا تنقضي، فأين هي تلك السعادة الخالدة التي لا تنضب). ويسترسل (سبينوزا) قائلاً: (لقد رأيت هم البشر وطموحاتهم تنحصر في ثلاثة أمور هي الشهوة والشهرة والغنى، وعندما وضعت كل عنصر للتحليل وجدت أنه لا يحقق شرط السعادة الدائمة التي لا تفنى، فالغنى أو المال مالكه قلق وفاقده متحسر، أو لنقل عندما يخرج الملكية يصاب الإنسان بالحزن، فقلت إن هذا درب لن يوصل إلى السعادة، وأما الشهرة فهي انصراف الوجوه إليك فإذا انحسرت أصبت بالحزن فكان كنظيره، وأما الشهوة فهي حرص في الأول وندامة في الأخير.

وهذا كله عرض زائل، فإذا انحسرت هذه الأشياء أو أصابها العطب، وسيصيبها حتماً أصيب الإنسان بالحزن، والقرآن يشير من حين إلى آخر إلى حالة نفسية مكن الوصول إليها من خلال الإيمان بالله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا

---

(١) سورة الكهف/ الآية: ٥٤.

﴿ خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[1]. هذه الحالة النفسية هي مزيج من انتفاء لعل تحصيله هو الذي يقول إلى الحالة النهائية التي يصفها القرآن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[2]، اختفاء أو زوال الشعور بالخوف، تبدد وانعدام الشعور بالحزن – الخوف هو مما سيأتي، والحزن هو مما مر وانقضى – زوال هذا التوتر هو الذي يقود إلى الهدوء الروحي، واختصرت الآية الكريمة الموجودة في سورة الحديد هذين الشعورين مع توضيح للآلية التي يعمل بها كل شعور ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴾[3].

والإيمان حسب الطرح القرآني يمر بمرحلتين أو أنه بعد الاستقرار الأولي يمكن أن يأخذ بعداً جديداً ﴿ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي ﴾[4]، لقد اعتمد الطب الحديث أن يدرس الإنسان على أساس التشريح والفسيولوجي وعلم النسيج والتشريح المرضي، وهي في النهاية طين بشري بحسب القرآن.

يقول علي شريعتي في كتابه (الإنسان والإسلام)، إن الفضيلة الوحيدة التي يتميز بها الإنسان على جميع الموجودات في العالم هي إرادته، أي انه الموجود الوحيد الذي يمكن أن يعمل بخلاف طبيعته وضد غريزته، فلا يمكن أن نشاهد حيواناً ارتكب خيانة، أو أن نسمع أن عشباً انتحر من شدة الألم. فالإنسان ثنائي الأبعاد، البعد الأول هو الصلصال، والثاني هو التسوية ونفخ الروح، وبهذه الكلمات نادى (روسو) الضمير فقال (أيها الضمير أنت غريزة إلهية، وصوت سماوي خالد، ومرشد أمين لكل جاهل محدود، بدونك لا استشعر في نفسي شيئاً ينمو بي فوق التراب).

---

(١) سورة البقرة/ الآية: ٦٢.

(٢) سورة الرعد/ الآية: ٢٨.

(٣) سورة الحديد/ الآية: ٢٣.

(٤) سورة البقرة/ من الآية: ٢٦٠.

وفي القرن الثامن عشر أوصى (كانت) أن يكتب على قبره الفقرة التالية (شيئان يملآن قلبي بالإعجاب والرهبة: السماء المرصعة بالنجوم فوق رأسي، والضمير الأخلاقي في نفسي). إذن فالقانون الأخلاقي قضية تمس صميم الإنسان منذ أن بدأ الإنسان يضع قدمه على الأرض ويكوّن المجتمع، بل إن قصة الشجرة في القرآن فيها من الرموز الشيء العجيب، إن فيها معنى الحرام، وهذا المعنى يفضي إلى الفكرة الأساسية في التعامل الاجتماعي أي فكرة الحق والواجب.

يقول عالم النفس (سكينر) في كتابه (تكنولوجيا السلوك الإنساني): كان من الممكن أن يقال قبل ألفين وخمسمائة عام أن الإنسان كان يفهم نفسه كما كان يفهم كل جزء من عالمه، لكن فهمه لنفسه اليوم هو أقل من فهمه لأي شيء آخر.

لقد تقدمت الفيزياء والبيولوجيا تقدماً كبيراً إلا أنه لم يحدث أي تطور مشابه في علم السلوك، ويمكن القول بأن السلوك البشري ميدان ذو صعوبة خاصة، وأنه لكذلك، ولكن الفيزياء والبيولوجيا الحديثة تعالج بنجاح موضوعات ليست بالتأكيد أبسط من نواح كثيرة من السلوك البشري، لكن الفرق هو أن الأدوات والمناهج التي تستخدمها البيولوجيا هي ذات تعقيد متكافئ. ولكن حقيقة كون الأدوات والمناهج ذات القوة المتكافئة غير متوفرة في ميدان السلوك البشري لا يعتبر تفسيراً، هي المسألة في اللغز المحير لطبيعة النفس البشرية.

ولقد حاولت مدارس علم النفس أن تدرس الإنسان، ولكن النفس البشرية تجاوزت مدارس علم النفس، يعتبر أبو حامد الغزالي (رحمه الله) من أبرز من كتب في تحليل النفس والأخلاق، وأبرز كتاباته هي في كتابه (إحياء علوم الدين) التي تمثل خلاصة تجاربه الروحية والأخلاقية، ولقد اختصر في كتابه (المنقذ من الضلال) وفي كتابه (معارج القدس في مدارج معرفة النفس) جو العصر الذي كان يحيط به والتحديات الفكرية والروحية التي واجهته.

ولا نستبعد كتاب (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) لابن مسكويه، حيث قام الغزالي وابن مسكويه بعملية مسح شمولية، وتحليل نفسي لمصادر الأخلاق كلها، وأثناء رسم البناء الأخلاقي يصلون إلى تعريف النفس ما هي، وأنها ليست بجوهر ولا عرض وأن الأخلاق هي التي تصدر من الإنسان بدون تكلف وأعمال عقل، وينطلق الغزالي بتحليل الأخلاق واضعاً إياها تحت المجهر ليصل إلى أمهات الأخلاق ومنابعها.

خلق الإنسان في هذه الدنيا لهدف، فالكون لا يقوم على الباطل، ولا يتجه إلى العبث ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[(1)]. إذا كان للماء دورة في الطبيعة، فللإنسان دورة في الوجود، وبالتالي لا يعتبر الموت نهاية وتحللاً للوجود الإنساني، بل هو أشبه بخسوف القمر أو كسوف الشمس، والخسوف والكسوف يغطيان الشكل ولكنه لا يلغيان حقيقة قائمة.

ولنسمع إلى هذه الحالة التي يعترف بها مفكروا الغرب نتيجة لبحوثهم الطويلة في هذا المجال، فهذا (ويلدر بنفيلد) الجراح العالمي الذي أجرى عمليات جراحية على أدمغة ما يربو على ألف مريض في حالة الوعي، وملاحظات (بنفيلد) حول وظيفة الدماغ تفوق في أحجيتها وكما لها جميع الأدلة السابقة غير المباشرة المستفادة من بحوث أجريت على حيوانات، ومن عمليات جراحية أجريت على أدمغة مبنجين (مخدرين)، حيث نشر (بنفيلد) جراء هذه الأبحاث كتابه المسمى (لغز العقل)، والذي أوضح فيه أن العقل البشري والإرادة البشرية ليس لهما أعضاء جسدية، ومن دواعي السخرية أن (بنفيلد) بدأ أبحاثه بهدف إثبات العكس، غير أن الأدلة حملته آخر الأمر على الإقرار بأن العقل البشري والإرادة البشرية حقيقتان غير ماديتين، ويعلن بنفيلد: (يا له من أمر مثير أن نكشف أن العالم يستطيع بدوره أن يؤمن عن حق بوجود الروح، وإذا كان العقل والإرادة غير ماديين فلا تخضعان للموت والتحلل إذن).

---

(١) سورة ص/ الآية: ٢٧.

هذا هو (بنفيلد) الطبيب الغربي الذي اكتشف وجود الروح التي تبقى بعد ممات الإنسان، وهو بهذه الحالة ينقض المادية الغربية التي لا تعترف باستمرار حياة الإنسان بعد الموت. إن الحبة التي تنبت عندما تدفن، وإن حقيقة الإنسان تنمو مع دخوله دورة الموت، لتكتمل دورة وجوده، وهو قصها القرآن بشكل مراحل.

يصف القرآن في موضعين القلب الذي يهيئ لدخول الجنة بأنه ((القلب السليم))، ولذا جاء الوصف الأول على لسان إبراهيم (عليه السلام)، الذي عانى في تلك المناجاة الطويلة عندما تأمل السماء ورؤية الكواكب لتفسير الوجود، وهو الذي فهم سر الحياة والموت في مناقشته مع النمرود، وهو الذي دخل مرحلة طمأنينة القلب عند سؤال رب العزة عن كيفية إحياء الموتى، لا لشيء ولكن ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾. وبذات الحالة جاءت تساؤلات الحواريين حينما سألوا عيسى (عليه السلام) إنزال المائدة ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾[1].

هذه (الطمأنينة) هي المحصلة الأخلاقية التي يريد الدين إيصال الإنسان إليها، ذلك أن موضوع القلق والخوف والحزن والغضب والتكبر والحقد وسوء الظن كلها تدخل هذه الدائرة (بعيدة عن الطمأنينة).

والإسلام يقول بعملية نقل معاكسة تماماً ليس فقط من الحالة المرضية المتمثلة بالخوف والقلق والتكبر وتصعير الخد على الناس بل إلى الرقي والكمال الروحي، وتعبيرات القرآن تصف النفس بثلاث حالات هي: النفس الأمّارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة. فالنفس الأمّارة بالسوء يمكن أن تتردد إلى النفس اللوامة حيث يستخدم مبدأ المراجعة والنقد الذاتي، تأمل قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[2] وموضع آخر ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ

(١) سورة المائدة/ من الآية: ١١٣.

(٢) سورة الأعراف/ الآية: ٢٠١.

﴿ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴾[1]، ومن الآية الأولى ندرك أن هناك إمكانية أن يتعرض حتى المتقين إلى طائف من الشيطان، ولكن عملية التذكر هي التي تعيد إلى الصواب، ومن هنا كانت عملية التذكر غاية في الأهمية، ولقد وردت في القرآن في مواضع عدة ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴾[2]، ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[3]، ﴿ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾[4]. وإذا أصبحت النفس لوامة تنتقل إلى تردد جديد إلى حيث النفس المطمئنة.

إن هدف الدين الجوهري هو الارتقاء بالأخلاق الإنسانية، فالإنسان الذي يصاب بألم في البطن أو الساق يهرع إلى الطبيب ليداوي هذا المرض الظاهري، ولكن هل ينتبه الإنسان إلى أنه أصبح مريضاً في قلبه، فأصبح متكبراً مختالاً فخوراً جباراً مصعراً خده للناس، قال رسول الله (ﷺ): ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر))، والسبب بسيط وهو أن الجنة ليست دار المتكبرين ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾[5]. إن أهل الجنة يجب أن يبتعدوا عن الحقد ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ ﴾[6]. وأهل الجنة متواضعون ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾[7]. إن أهل الجنة قلوبهم سليمة، وأنهم في الدنيا يتعرضون إلى نفحات عجيبة يشعرون فيها بحلاوة لا تلبث أن تختفي في زحمة الحياة، فالمسلم المؤمن يصل إلى الجنة وهو في الأرض، ولكن باقي الناس لا يصلون إلى هذه الحالة النفسية

---

(١) سورة القلم/ الآية: ٣٠.

(٢) سورة الغاشية/ الآية: ٢١.

(٣) سورة ق/ من الآية: ٤٥.

(٤) سورة الأعلى/ الآية: ٩.

(٥) سورة الأعراف/ من الآية: ١٤٦.

(٦) سورة الأعراف/ من الآية: ٤٣.

(٧) سورة القصص/ الآية: ٨٣.

طالما أن بينهم وبين الله حجباً يختصرها الأمام الغزالي بأربع: المال والجاه والمعصية والتقليد، إننا لم نخلق للدنيا بل للآخرة، نحن خلقنا من التراب وسنعود إلى التراب، والجسد سيتحلل لكن الروح ستبقى لأنها ليست جزءاً من الجسم، بل هي كلمة الله. وهكذا نرى أن هدفنا في هذه الحياة هو التعامل الأخلاقي مع الآخرين، لكي نكون بشراً سوياً يصلح أن يعيش على هذه الأرض، فلا يتكبر ولا يصعر خده للناس.

٤. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

إن الهتاف هنا للذين آمنوا ليطيعوا الله ورسوله، ولا يتولوا عنه وهم يسمعون آياته وكلماته، وإن كانت مناسبة الآية هو أحداث معركة بدر، ويد الله فيها ومدده، وتوكيد النصر للمؤمنين، فما يبقى بعد ذلك كله مجال لغير السمع والطاعة لله والرسول.

وفي ذات الوقت فالآية الكريمة عامة وفيها هتاف للإيمان بالله ورسوله وما جاء من الحق ولو في أخص الأمور الدينية، أي في مسألة الصلاة والصيام والزكاة والحج، ولنسمع معاً كل مسألة على حدا ما لم نسمعه عن الصلاة والصيام والزكاة والحج.

ولنبدأ أول الأمر بالصلاة، فالصلاة هي عماد الدين وقد أمر الله إقامتها لوقتها، وفرضها على المسلمين ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾[2]. ومن أهل شروط الصلاة الوضوء، إذ لا صلاة بلا وضوء، والوضوء من الناحية النفسية إنما هو إعداد الشخص وتهيئة ذهنه للوقوف بين يدي الله الرحمن الرحيم، فهو إذن استعداد نفسي، وقد شبه الدكتور محمد عبدالحميد الوضوء بأنه كفترة

---

(١) سورة الأنفال/ الآيتين: ٢٠-٢١.

(٢) سورة النساء/ من الآية: ١٠٣.

الاستراحة بين محاضرتين، فهي تعطى للطالب للاستعداد للمحاضرة القادمة.أما فوائد الوضوء من الناحية الطبية فهي أكثر من أن تحصى، إذ إنها وقاية وعلاج، يقول الدكتور موفق الشطي (الوضوء غسل موضعي يوصى فيه باستعمال الماء البارد الذي يؤدي إلى تقبّض العروق الشعرية السطحية، ثم تعود إلى حالها، فيستفيد الجسم من ذلك فائدة عظيمة، إذ يرتفع الضغط الدموي أولاً، وتزداد حركة القلب، ويزداد عدد الكريات الحمراء، وتنشط المبادلات في الجسم، وتقوى الحركات التنفسية، فيزداد مقدار الأوكسجين الداخل، وتكثر كمية ثاني أوكسيد الكاربون الخارج. وغسل الأجزاء المكشوفة بالوضوء له تأثير عام على الجسم إذ يفرز البول، ويكثر من إفراغ السموم، وتزداد الشهوة إلى الطعام، وينشط الهضم، وتتنبه الأعصاب الجلدية والأعصاب المحركة، وينتقل هذا التنبيه إلى جميع الأعصاب الوريدية والرئوية والمعدية، ومنها إلى جميع الأعضاء والغدد).

ولعل الطب الحديث قد أوضح ما للوضوء من آثار طبية في الوقاية من أمراض الأسنان واللثة، فنظافة الفم والمضمضة والغرغرة بالماء أهم ما يوصي به الأطباء لتجنب العدوى من الأمراض التي تنتشر عن طريق الجهاز التنفسي أو الفم، كالالتهاب السحائي، وأمراض الشعب، بل إن غسل طاقات الأنف والفم بالماء البارد عدة مرات يومياً يعتبر من أهم طرق الوقاية من الزكام.

وأما غسل الوجه واليدين والرجلين فيقول الدكتور عبدالعزيز إسماعيل، إن غسلها عدة مرات كل يوم أحسن وقاية لها من الأمراض الجلدية والالتهابات، إذ اتضح أن كثيراً من الميكروبات، بل الأغلبية منها، تصيب الإنسان بطريق اختراقها الجلد، كما اتضح أن طفيليات الديدان تدخل الجسم بطريق اختراق الجسم أيضاً، ولا شك أن الغسل المتكرر من الوقايات البسيطة الفعالة، لأن الطبقة الخارجية للجلد تمنع الميكروبات من الوصول إلى داخل الجسم، إلا إذا حدث في الجلد تسلخ الذي نتيجته عدم النظافة.

ويقول الدكتور عبدالواحد الوكيل في كتابه (علم الصحة): (يؤدي الجلد للجسم وظيفة هامة جداً، وهي إفراز العرق من آلاف غدد العرق الموجودة فيه، ويحتوي العرق على مواد دهنية وأملاح، فإذا تبخر الماء بقيت الأملاح الدهنية وتراكمت على الجلد، فإذا كان الجلد وسخاً لا يغسل عدة مرات في اليوم انسدت مسام الغدد العرقية، فلا يفيد العرق بعد ذلك بشيء لا بل يكون عرضة لجلب الأمراض، لذلك على الشخص أن يغتسل يومياً لا سيما الوجه واليدين).

هذه بعض حكم الوضوء التي أثبتها العلم الحديث لمصلحة الإنسان، أما الصلاة فإن فوائدها لم تعد مقصورة على النواحي الاجتماعية، بل أثبت التقدم في علوم الطب والنفس، إن حكم الصلاة قد شملت الإنسان بجزئيه؛ الجسد والنفس.

فإن أهم ما معنى به أساليب التربية الحديثة، وما ينصح به علم الصحة الوقائية، التمرينات الرياضية، ففي هذه التمرينات الأساس في بناء الجسم السليم الذي لا بد له لوجود العقل السليم، وإن أداء الصلاة خمس مرات كل يوم خير وسيلة تجنى لفوائد التمرينات الرياضية، فأوقات الصلاة هي أنسب الأوقات التي يوصى فيها بأداء التمارين.

أما حركاتها فقد عرف أن القيام والقعود عدة مرات في كل صلاة خير وسيلة لتنشيط الدورة الدموية التي تنشط كافة الأجهزة، ولذلك تعتبر الصلاة منشطة للهضم وفاتحة للشهية. والركوع والقيام منه يقوي عضلات الظهر والمعدة، ويزيل ما قد يتكون فإنه يقوي عضلات الفخذين والساقين، ويباعد عن وصول الدم إلى أطراف الجسم، والسجود أيضاً وقاية من أمراض تمدد المعدة بما يسببه من تقلص عضلاتها وتحريك الحجاب الحاجز.

وقد أثبت الطب الحديث أن الصلاة تعمل على خفض ضغط الدم العالي، وأن مرضى الضغط لو حافظوا على أداء الصلاة وأقاموها على مهل لأفادتهم فائدة محققة. كما أن أداء الصلاة قبل الأكل يعتبر عاملاً هاماً في وقاية الإنسان من

أمراض المعدة لا سيما قرحة المعدة، إذ ينصح الأطباء دائماً بألا يتناول الفرد طعامه وهو مجهد أو مرهق أو ثائر الأعصاب، بل لا بد من فترة هدوء تسبق الطعام، وإن الصلاة لخير ما ينفع الإنسان في ذلك.

وتشمل الصلاة بفوائدها الجهاز العصبي للإنسان، إذ أنها تزيل توتره، وتهدئ من ثورته، وتشفيه من أضطرابه، بل تعتبر علاجاً ناجحاً للأرق الناتج عن الاضطراب العصبي، يقول الدكتور توماس هايسلوب (إن من أهم مقومات النوم التي عرفتها في خلال سنين طويلة من الخبرة والتجريب هو الصلاة، فإن الصلاة هي أهم وسيلة عرفت إلى الآن لبث الطمأنينة في النفوس وبث الهدوء في الأعصاب.

يقول الدكتور إدروين باورز، أستاذ الأمراض العصبية في إحدى مدن الولايات المتحدة (هناك معجزات في دنيانا نتمكن بها من إبراء مرضانا بغض النظر عن الجراحة أو السيكولوجي أو الاهتزازي، والتي تم فيها شفاء المرض واستعادتهم الصحة والعقل من خلال الصلاة).

أما الدكتور الكسيس الحائز على جائزة نوبل في الطب في أمريكا فيقول على الصلاة (تعتبر الصلاة أعظم مولد للنشاط عرف إلى يومنا هذا، وقد رأيت كثيراً من المرضى أخفقت العقاقير في علاجهم، فلما رفع الطب يديه عجزاً تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم، وهي ليس مجرد تلاوة ميكانيكية للأوعية، ولكنها نسائم يحس فيها الإنسان بالله سبحانه كما يحس بحرارة الشمس، إن الصلاة تخلق ظاهرة غريبة أنها تأتي بمعجزة، فقد شاهدنا تأثير الصلاة في الحالات الباثولوجية إذ برئ كثير من المرضى من أمراض مختلفة متعددة كالتدرن الرئوي، والتهاب العظام والجروح القائحة والسرطان وغيره). وتعمل الصلاة على حصانة الفرد من العقد النفسية التي تسبب إخفاق الإنسان في حياته، وتبعد عنه الكبت وما يسببه من أمراض.

ومن الأدوية الشافية للقلق إفضاء الشاكي بمتاعبه إلى شخص يثق به، وقد أنشئت أغرب مؤسسة في العالم تحت أسم (رابطة إنقاذ الحياة) تهدف إلى إنقاذ حياة

الذين أزمعوا التخلص من حياتهم بالانتحار، وذلك عبر الإفضاء عن المتاعب التي تواجه الفكر في حياته والتي وصلت به إلى درجة الانتحار، فكيف إذا أفضى العبد إلى ربه بكل مشاكله. ومناسبة هذا الكلام والحزن الشديد الذي يواجه أي إنسان لزم علينا ذكر حديث رسول الله (ﷺ) في هذا الشأن لمّا أصيب أحد الصحابة بغم كبير أثر فقد ولده، وكان بجانبه صحابي آخر يواسيه ويقول له ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾[(١)] فسمعها رسول الله (ﷺ) فقال ((والله لو أن رجلاً قالها مؤمن بها لأزالت عنه حزنه ولو كان مثل جبل أحد)).

ومما يدعو إليه أطباء علم النفس العصريون استعمال عبارات الإسهاب للنفس، وذلك بعد أن ينهض الإنسان من الصباح ثم يردد (إني أتحسن وأتحسن) وأسير من حسن إلى أحسن من جميع الوجوه يوماً بعد يوم، فهذا الأمر وقاية للإنسان من كل اهتزاز نفسي أو كبت أو عقد بسبب مشاكل الحياة، فهل من سبيل للمقارنة بين ترديد هذا القول وبين الصلاة التي يحمد الله فيها الإنسان سبع عشرة مرة في اليوم.

يقول الكاتب (هراس ليف) في المجلة الإسلامية الإنجليزية: (لقد أعجبت كل العجب حينما رأيت عدم التفريق بين الطبقات في الجامع، فأكبر رجل في الدولة يمكن أن يصلي بجانب فقير جداً، فلا كلفة بينهم، وأعجب كثيراً أيضاً عندما علمت أن الإسلام لا يفرق بين جميع الأنبياء، ويؤمنون بما أنزل إليهم من كتب سماوية، لذلك لم أعد أشك أن هذا الدين يصلح لأن يكون ديناً عاماً).

ويحكي الأستاذ عبدالله كوليم الإنجليزي المسلم (إنه حينما كان مسافراً على ظهر باخرة، إذ بعاصفة قد هبت وأشرفت السفينة على الغرق، وأخذا الناس يضطربون يمنة ويسرة، وإذا بي أرى جماعة من المسلمين وقفت صفاً واحداً واستوت وأخذوا يكبرون ويسبحون، فسألت أحدهم ماذا تفعلون قال إننا نصلي لله، قال ألم يلهكم

---

(١) سورة المؤمنون/ الآية: ١١٥.

إشراف السفينة على الغرق؟ قال لا، إننا نصلي لله الذي له الأمر، فإذا شاء أحيا وإذا شاء أمات. وقد كان هذا الحادث سبباً في بحثه عن الدين الإسلامي وهدايته للإسلام، وأصبح من كبار دعاة الإسلام في إنكلترا وقد أسلم على يديه الكثير.

هذه هي الصلاة التي دعا إليها الإسلام، نظافة ظاهرية للجسد، ونظافة باطنية للنفس في تسلم أمرها لله.

أما الزكاة فهي إحدى دعائم الإسلام الخمس، أوجبها الله تعالى على المسلمين وفرض أدائها فرضاً ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[1]، كما أنذر الذين يمتنعون عن الزكاة فقال ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[2].

والكنز هو كل مال لا تؤدى زكاته وإن كان لم يكن مدفوناً، أما ما تؤدى زكاته من مال فليس يكنز ولو كان مدفوناً.

والزكاة واجبة على كل مسلم، ولو لم يبلغ الحلم، ولو كان سفيهاً، وليس في العالم على اختلاف أنظمته شيء يماثل الزكاة عند المسلمين أو حتى يماثله.

وليست الزكاة نوعاً من الصدقة أو الإحسان يدفعه المسلم، إنما هو حق معلوم، وصون لكرامة الفقير، وحفظ لماء الوجه، فالفقر هو أساس جرائم الفرد وثورات الجماعات، لذلك كانت الزكاة أكبر عامل لمنع انتشاء مبادئ الحقد على الأغنياء.

ولقد حاول العالم جاهداً أن يوفر لشعوبه الأمان والرفاهية الاقتصادية، وما النظم التي نراها في العالم من رأسمالية وشيوعية وفاشية ونازية واشتراكية إلا محاولات تحاولها الدول لوضع أنظمة اقتصادية تعود لها ولشعوبها بالنفع، فأخذت الدول

---

(١) سورة البقرة/ الآية: ٤٣.

(٢) سورة التوبة/ الآيتين: ٣٤- ٣٥.

تتسابق إلى كنز الأموال وزيادة صادراتها عن وارداتها، لتكديس الذهب بها، ثم أخذت دعوة الحرية الاقتصادية تنمو من خلال تنافس الأفراد في العلم، فازدادت ثروة الأغنياء، ثم تدخلت الآلات والمصانع فضاعفت الإنتاج، وبالتالي ضاعفت ثروة الأغنياء، ودفعت الفقراء إلى الحضيض.

وقام كارل ماركس ليعلن أن سبب شقاء العمال وفقر الفقراء إنما هو أصحاب رؤوس الأموال وجشعهم في الحصول على الثروة، وإنه لا سبيل إلى إصلاح حالهم إلا بالقضاء على سبب الشقاء وهو رأس المال الفردي أي الملكية الفردية من صناعية وزراعية وتجارية، واستمدت البلشفية الشيوعية جميع مبادئها من هذا النداء.

وإن أوضح صفات هذه النظم وأبرز ما تتميز به هو المغالاة والتطرف، فالرأسمالية تستحوذ على العالم والفقير باعتبارهم أداة لزيادة الدخل، وتقدس رأس المال وتحافظ عليه لأفراده، فلا اعتدال في الحكم ولا وسط في الرأي. أمّا الإسلام فإنه يترك للفرد رأس ماله وحرية التصرف فيه، ونادى بحق الفقير على الغني، وحارب الإسلام طغيان رأس المال في صور شتى هي الربا وكنز المال وعدم تداوله عن التعامل، وغيرها.

ومن ضمن ما قام به الإسلام في سبيل إشاعة العدالة التي اعتمدت عليها النهضات الاقتصادية هي نشر العلم، ليعرف كل فرد حدوده، ويقف كل فرد على واجباته، إذ يعتبر العلم إحدى الدعامات الكبرى للإصلاح لأنه ينير الطريق ويفرق بين الحق والباطل، والإسلام أول نظام دعا إلى العلم، وقد شهد غير المسلمين له بذلك، غذ قال العلامة كازنوفا أحد كبار علماء فرنسا (يعتقد الكثيرون أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفكارنا وينسون أن نبي الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة، فأي رئيس ديني وأي قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول الفصل المتين، هذا القول هو عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة).

ويقول الدكتور هورتين وهو أحد علماء الألمان (نجد بالإسلام اتحاد العلم والدين وهو الدين الوحيد الذي يوحد بين الدين والعلم، ونجد أن الدين موضوع بدائرة العلم، وإن وجهة الفيلسوف ووجهة الفقيه متماشيان معاً كتفاً لكتف دون نزاع).

ولقد أثبت علم النفس مؤخراً أن الزكاة عمل جماعي من خلال مشاركة الفرد الغني لأمواله مع الفقراء، وهذا الأمر هو أساس الصحة العقلية، لأن الإنسان يشعر أنه ضمن جماعة ويتقدم لهم بالنفع.

ومن ضمن ما اشتبه علم النفس أن الزكاة تجعل الإنسان يتحلل من عبادة المال، ولا يجعل في المال يسيطر عليه مما يؤدي به إلى المرض أو الانتحار.

وهنا أحببنا أن نسرد قصة المليونير الأمريكي (جون روكفلد)، الذي جمع أول مليون من ثروته في سن الثالثة والثلاثين، وفي سن الثالثة والأربعين كان قد أنشأ أضخم شركة احتكار في العالم، وفي سن الثالثة والخمسين، كان قد أسلم زمامه للقلق الذي حطم صحته، حتى لقد كان يبدو كالدمية، إذ أصيب بسوء الهضم وتساقط الشعر وتقصف أهدابه، وبلغت حالته الصحية من الخطورة الأمر الذي أدى بالأطباء إلى نصحه بعدم تناول شيء سوى اللبن، لقد تحول (روكفلد) إلى هيكل عظمي مكسو بالجلد الأصفر الباهت، فما الذي أوصل روكفلد إلى هذه الحال؛ كان يعبد المال ليس إلا.

عندها أخبره الأطباء بين اعتزال العمل أو الموت فاختار الاعتزال، فأخذ يفكر هذا الغني عن كيفية حال الناس وكيف يعيشون فرأى في الناس الشيء العجيب من خلال عيشهم ولا سيما الفقراء، وبدأ يتخلى عن ملايينه ودأب على الإعطاء، وهب الكنيسة جانباً من ماله، أسدى المعونة للزنوج، ساهم في محاربة الأمراض المتفشية، أمد كل الجهات بالمال، فعاوده السلام والأمان والاطمئنان، وعاش (روكفلد) حتى بلغ الثامنة والتسعين بعدما توقع الأطباء موته لا محالة في الثالثة والخمسين، وهكذا فعل فيه التجرد من عيادة المال.

إن فضل الزكاة يشمل الكل؛ المؤدي لها من كافة نواحيه، والمؤدى إليه من كل نواحيه، كما يشمل المجتمع من كل جوانبه، وهكذا ليس لمفاخر الزكاة كما ليس لمفاخر الإسلام من نهاية.

أمّا الصيام فهو أحد أركان الإسلام أيضاً ويقول الله فيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[1].

وقد أثبت التقدم الحديث ما للصيام الذي فرضه الله تعالى على المسلمين من فوائد شاملة لكافة النواحي الروحية والجسدية، وحدد سبحانه وتعالى الصيام بشهر في السنة هو شهر رمضان، ولقد كان المعروف المتواتر عن حكمة الصيام أنها دعوة روحية ليحس الغني بإحساس الفقير إذا جاع، فيشمله ببره.

ولم تظهر فوائد الصيام إلا بعد أن اتسعت آفاق العلم الحديث، ونقد من العلوم الطبية، فإذا بصيام شهر بالسنة هو ما ينصح به الطب الحديث.

تقول إحدى نظريات علم الصحة، إنه من الواجب لا سيما على المتقدمين في السن، أن يصوموا يوماً على الأقل كل أسبوع، إذ أثبت أن الإنسان غالباً ما يصاب ببعض البؤرات الصديدية التي تتكون داخل جسمه وتصب إفرازاتها السامة في الدم، ولا يشعر الإنسان بها إلا إذا زاد ذلك الإضرار، فإذا بالإنسان يمرض فجأة بأمراض كثيرة، وقد عرف أن الصوم خير وسيلة لتجنب الإصابة بهذه البؤرات، إذ عندما تقل المواد الغذائية في الجسم يبدأ الجسم في استهلاك أنسجته الداخلية، وأول ما يستهلكه الجسم الخلايا المصابة التي تكون قد ضعفت نتيجة الالتهاب، كما يذيب الصيام أية أورام صغيرة في أول تكوينها، ويمنع تكوين الحصوات والرواسب الجيرية يحللها أولاً بأول.

وفي ذلك يقول الدكتور روبرت بارتولو (لا شك في أن الصوم من الوسائل الفعالة في التخلص من الميكروبات وبينها ميكروب الزهري لما يتضمن من إتلاف للخلايا ثم إعادة بنائها من جديد).

---

(١) سورة البقرة/ الآية: ١٨٣.

ويقول الدكتور عبدالعزيز إسماعيل (إن كثيراً من الأوامر الدينية لم تظهر حكمتها وستظهر مع تقدم العلوم فلقد ظهر أن الصيام علاج يستعمل في اضطرابات الأمعاء المزمنة، وكذلك في حالة الضغط المرتفع، وكذلك يعتبر علاجاً لالتهاب الكلى الحاد والمزمن وأمراض القلب، والصيام خير وسيلة للقضاء على هذه الأمراض وغيرها).

ويقول الدكتور محمد الظواهري (إن كرم رمضان يشمل مرض الأمراض الجلدية، ذلك أن قلة الماء تقلل من حدة الأمراض الجلدية الالتهابية والمنتشرة بمساحات كبيرة في الجسم، ويعمل الصيام كذلك على إراحة الأمعاء ويقلل الميكروبات الكامنة بها وما أكثرها، وبالتالي يقل امتصاص السموم من الأمعاء، وهذه السموم تسبب الكثير من الأمراض الجلدية، وإن الأمعاء لبؤرة خطيرة من البؤر العفنة التي تشع سمومها عند كثير من الناس، وتؤذي الجلد والجسم).

والصيام يخلق في الإنسان الصبر، والصبر تعود، ومن تعود أصبح قادراً، وليس أصبر من الإنسان الجائع يرى الطعام فلا يقربه، ويشتد به العطش في يوم حار ثم يدع الماء. وقد أثبت العلم الحديث أن النشاط العقلي والجسدي يزداد بجوع الإنسان، هذا علاوة على ما في الصوم من رياضة روحية يتقرب بها العبد من ربه مما يجعل الإنسان يحجم عن الخطأ وتكف جوارحه عن الآثام، وصدق الله العظيم عندما قال ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(١)].

أمّا الحج فهو ركن آخر من أركان الإسلام، وقد فرض الله تعالى الحج على المسلمين لمن استطاع إليه سبيلاً ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[(٢)]. والحج دعوة كبرى لعقد مؤتمر عالمي للمسلمين يباشرون فيه أمورهم، ويحلون فيه مشكلاتهم، ويتجاوبون به لمختلف رغبات المسلمين أيما كانوا. وفي العصر الحديث

---

(١) سورة البقرة/ من الآية: ١٨٤.

(٢) سورة آل عمران/ من الآية: ٩٧

نجد أن دول العالم كله نجد أن لا مناص من عقد المؤتمرات التي تضم الطوائف المختلفة في سياستها أو مشاريها أو اتجاهاتها الاقتصادية لتقوية دول هذا المؤتمر، وأصبحت الدول تتسابق إلى ضم أكبر عدد من حلفائها إلى جانبها، ولكنها مهما قامت به فليس بمستوى اجتماع المسلمين من كل الدول في العالم ومن كل الطوائف والألوان بدون استثناء، فهؤلاء جميعاً تربطهم رابطة العقيدة الواحدة.

ورغم اجتماع الملايين من كافة أنحاء العالم، وخلال مئات السنين أي من يوم فرض الحج إلى يومنا هذا لم نر انتشار أي مرض من الأمراض المعدية أو غيرها في بيت الله الحرام، وهذه إرادة الله في هذا الأمر العظيم، ولعل الآية الأخرى التي يراها كل إنسان في الحج والتي أصبحت مبعث إعجاب لكل من رآها، أن تلك الألوف من طيور الحمام التي تحوم حول الكعبة لا تحط عليها إطلاقاً، حيث لم تحط حمامة واحدة على الكعبة منذ أن قامت الكعبة حتى يومنا هذا، ولم يشاهد في الحرم ولا بجوار الكعبة أية فضلة من فضلات هذا الحمام، فهذا الحمام يخرج فضلاته بعيداً عن الكعبة، فماذا يا ترى يرى هذا الحمام يعينه ولا نراه نحن. هذه بعض الأضواء على تكاليف الإسلام، وهي تثبت بما لا يقبل الشك أو الجدل أنها لم تشرع إلا للخير، فكيف لا نطيع الله ورسوله فيما أمرنا به من خير كثير؟؟!

االفصل الثالث

التدرج الإيماني لآيات الترهيب في أمور الآخرة

الآخرة نهاية المطاف في رحلة الإنسان بعد الحياة الدنيا وحياة البرزخ وبعدها إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولكن كيف هو الذي آمن بالغيب وكون له عقيدة سليمة فخاف ربه ونهى النفس عن الهوى، فكانت حياته المجتمعية سليمة بما أمره الله في الكف عنه والنهي منه. في الحقيقة لقد وصل هذا الفرد المؤمن في إيمانه بالغيب أول مرة عندما شكل له عقيدة راسخة وأصبحت بعدها نفسه مطمئنة في حياته إلى غيب آخر يتمثل في آيات الآخرة، فالغيب يحيط به من أول أمره إلى آخره، ولقد شكل له خير وازع للإيمان بما يقوله الحق عما سيجري يوم القيامة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾[1] وقوله تعالى ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾[2]، وهكذا آيات بينات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

١. ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾[3].

في الآية الكريمة قسم تهديدي، يقسم الله تعالى بنفسه وهو أعظم قسمن على أنهم سيحشرون بعد البعث هم والشياطين الذين يوسوسون بالإنكار، وهنا يرسم لهم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم وملئهم الخزي والمهانة، وهي صورة رهيبة مع

---

(١) سورة التكوير/ الآيات: ١-٣.

(٢) سورة الانفطار/ الآيات: ١-٤.

(٣) سورة مريم/ الآيتان: ٦٨-٦٩.

الجموع الهائلة التي لا تحصى، والتي تشهد هول جهنم ولفحها.وهذا المشهد يمثل مشهد المتجبرين المتكبرين في الأرض الذين كانوا يظلمون الناس ويفرقون بينهم وكانوا لا يرحمون البشرية ويزجونها بحروب طاحنة ومشاريع مهلكة. فالحمد لله الذي سيرينا ذلك اليوم الذي نرى فيه ظالمينا يملؤهم الخزي والعار من جراء ما اقترفوه معنا طوال حياتنا وحياة كل من ظلموه في الأرض.

وفي موضوع آخر من سورة طه يقول الباري عز وجل ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾[1]. فإن المجرم لا هو ميت فيستريح ولا هو حي فيتمتع، إنما هو بالعذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا إلى حياة.

ونمضي مع آيات الترهيب في أمور الآخرة وفي المواضع التي ذكرت فيها جهنم، إذ يقول عز من قائل في سورة العنكبوت ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[2].

إن القرآن الكريم يصور جهنم وهي محيطة بالكافرين، وهو تصوير يوقع في الحس رهبة، وهي طريقة يتبعها القرآن في التصوير في استحضار المستقبل وكأنه مشهود وهذه من سمات الغيب الذي يجب أن يؤمن بها الإنسان العاقل خاصة بعدما آمن بالغيب من خلال رسوخ عقيدته التي آمنت له واقعاً مجتمعياً سليماً، ثم تدرجت به إلى محافل الآخرة وما تضم من العذاب للمنكرين.

ونمضي مع السياق القرآني في استعراض مواضع النار ومراجع الظالمين إذ يقول ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى

(١) سورة طه/ الآية: ٧٤.

(٢) سورة العنكبوت/ الآيتان: ٥٤-٥٥.

كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]. إنه القلق والاضطراب وعدم الاستقرار على حال، وهو صوت غليظ مختلط الأصداء، أنه صوت المنبوذين في جهنم ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ لكي يخرجوا منها ويعملوا صالحاً، إنها الندامة والخيبة الكبرى والندم العظيم، ولكن بعد فوات الأوان.

وفي موضع آخر يقول تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[2]، أنها المفاجأة الهائلة في الموقف العصيب، وهم يوصفون بأنهم أعداء الله، فما مصير أعداء الله، إنهم يحشرون ويجمع أولهم على آخرهم كالقطيع، إلى أين؟ إلى النار، حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب، فإذا بشهود عليهم لم يكونوا بالحساب، إنها جلودهم وأبصارهم وأسماعهم شهدت عليهم، وكانوا يظنونها من المحال أن تنطق ولكن أنطقها الله الذي أنطق كل شيء.

ثم يستطرد موقف العذاب يوم القيامة فينظر الخاسرون إلى جهنم من طرف خفي ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾[3].

والظالمون كانوا طغاة بغاة، فناسب أن يكون الذل مظهرهم البارز يوم القيامة، إنهم يرون العذاب فيتهاوى كبرياؤهم، ويعرضون على النار خاشعين من الذل والهوان وهم منكسري الأبصار لا يرفعون أعينهم من الذي والعار.

---

(١) سورة فاطر/ الآيتان: ٣٦ -٣٧.

(٢) سورة فصلت/ الآيتان: ١٩ -٢٠.

(٣) سورة الشورى/ الآية: ٤٥.

وفي مشهد مشطور عن المشاهد السابقة في نار جهنم ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾[1].

حيث يبدأ المشهد بعرض لشجرة الزقوم وأنها طعام الأثيم، وهو مشهد مرعب مخيف، إن هذا الطعام هو زيت مغلي تغلي منه البطون، وهناك هذا الأثيم المتعالي على ربه وعلى رسوله الأمين، يأخذ أخذاً من قبل الزبانية في عنف يليق بمقامه (الكريم) أي خذوه في إهانة وبلا كرامة ولا هوادة، وهناك صبوا فوق رأسه من ذلك الحميم المغلي، ومع الشد والدفع والعتل يأتي التأنيب والترذيل ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾.

ثم تأتي اللمسات الأخيرة من هذا العذاب إذ يقول الحق ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[2].

يا له من سؤال، بل يا لها من قارعة للذين كانوا يكذبون ويستهزئون ويستعجلون، واليوم تتلوى أعناقهم على الحق الذي كانوا ينكرون، والجواب في خزي وفي مذلة ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ ﴾ هكذا يقسمون ﴿ وَرَبِّنَا ۚ ﴾ الذي كانوا لا يستجيبون لداعيه، ولا يستمعون لنبيه، ولا يعترفون له بربوبية، ثم هم اليوم يقسمون على الحق الذي أنكروه، عندها ينتهي الحوار ﴿ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾؛ الجريمة ظاهرة، والجانب معترف وإلى الجحيم. فالمواجهة حاسمة، ولا مجال لأخذ ولا رد، لقد كانوا ينكرون فالآن يعترفون، والآن يذوقون.

---

(١) سورة الدخان/ الآيات: ٤٣ -٤٩.

(٢) سورة الأحقاف/ الآية: ٣٤.

٢ . ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾[١].

نحن أمام أهوال كبيرة لا يمكن أن يتصورها عقل بشر، وإذا أمعنا النظر والتفصيل في كل مفردة في هذه الآية الكريمة وجب علينا أن نقف بالتفصيل عند كل باب منها.

ولنبتدئ أولاً بالسماء ما هي السماء، وكيف تنفطر في يوم القيامة، يظن الناس أن السماء طبقة مادية صلبة، وأقول أن السماء هو الفضاء لا غير، فقوله تعالى﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[٢] يعني أنزل من الفضاء ماءً، ودليل آخر من سورة سبأ قوله تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾[٣]. يدل على أن السماء ليست بطبقة مادية صلبة، ولو كانت صلبة لقال (وما يعرج إليها) أي يصعد حتى يصل إليها.

فالسماء في حال المفرد معناها الفضاء، أما على الجمع فلها معانٍ أخر، والفضاء ليس فراغاً بل فيه طبقات غازية وأثيرية وأجرام سماوية، وهذه المعاني إذا جاءت السماء على الجمع.

والطبقات الغازية هي الزرقة التي نراها في السماء، ومنشأ السماوات الغازية من الأرض وذلك لما كانت الأرض شمس ملتهبة تبعث منها غازات تملأ فضاءها، ولما انتهت حياتها برد وجهها فاستحالت أرضاً، ثم انفجرت فصارت تسع قطع وأخذت تدور حول شمس جديدة، ومن المعلوم أن الغازات منها الثقيل ومنها الخفيف، فأخذت

---

(١) سورة الانفطار/ الآيات: ١ -٥.

(٢) سورة الحج/ من الآية: ٦٣.

(٣) سورة سبأ/ الآية: ٢.

تنفصل بعضها عن البعض، لأن الثقيل ينزل إلى أسفل والخفيف يرتفع إلى أعلى فصارت سبع طبقات غازية، فالطبقة الأولى هي غاز الأوزون، ثم تليها طبقات أخرى كثاني أوكسيد الكبريت والهيدروجين والهليوم وغير ذلك من الغازات. والدليل على أن السماء غازية قوله تعالى في سورة السجدة ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[1]؛ فقوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني سماء الأرض ﴿ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ يعني الدخان الذي خرج من الأرض وهو خليط من سبع غازات ﴿ فَقَالَ لَهَا ﴾ أي للسماء ﴿ وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا ﴾ إلى قوة الجاذبية ﴿ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾؛ ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾[2] أي فصلهن وجعلهن ﴿ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ يعني فصل ذلك الدخان حتى صار سبع طبقات من الغازات.

أما السماوات الأثيرية فهي سبعة كذلك، ولكن إذا صار يوم القيامة تكون ثمانية، وهنّ مستمرات في الازدياد، لأن كل أرض تتكون تنشأ خلالها طبقة أثيرية، فإذا تمزقت تلك الأرض عند قيام قيامتها فإن الطبقة الأثيرية تنفصل منها وتلتحق بتلك السبعة الأثيريات، على أن تكوين هذه السبعة لم يكن دفعة واحدة بل تكوّنت بتمزيق سبع مجاميع شمسية قبلنا. أي أن هناك سبع مجاميع شمسية قامت قيامتها قبلنا ونحن المجموعة الشمسية الثامنة، اي أن ترتيب يوم القيامة القادم هو الثامن والدليل قوله تعالى ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾[3] يعني ثماني سماوات أثيرية تحمل العرش يوم القيامة، أما اليوم فتحمله سبع سماوات أثيرية.

ولكن ما هو الأثير، لقد عرف علماء العصر الأثير وقالوا إنه شفاف كالهواء، وذراته أدق من ذرات الهواء بكثير، لذلك لا تراه المخلوقات المادية، وقال العلماء إن

---

(١) سورة فصلت/ الآية: ١١.

(٢) سورة فصلت/ من الآية: ١٢.

(٣) سورة الحاقة/ من الآية: ١٧.

الأثير يملأ الفضاء ولولا وجوده لما دارت الكواكب السيارة في أفلاكها بل لسقطت في الفضاء على رغم القوة الجاذبية، لأن الأثير هو الحامل لهذه الأجرام، قال الله تعالى في سورة يس ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] فالسبح لا يكون إلا في شيء سائل أو ما يماثله من هواء أو غاز أو غير ذلك، فالأجرام السماوية سابحة في الأثير.

والأثير يشغل كل فراغ، ويتخلل مسام الماديات ويخترق الزجاج فيبني هيكلاً أثيرياً داخلها يطابق شكلها بمدة من الزمن، (فإذا تحطم الهيكل المادي فإن الأثيري لا يتحطم ولا يفنى إلى الأبد حيث تماسكت ذراته خلال هذه المدة)، ومثلاً إناء الخزف تتخلله ذرات الأثير فتبني داخله إناءً أثيرياً على شكله ولا فرق بين إناء خزفي أو نحاسي أو أي شيء يخطر على بالك.

فالسماوات الأثيرية يأتي ذكرها في القرآن على قسمين فتارة يسبق ذكرها ذكر الأرض، على شرط أن لا يكون بينهما واو عطف، ومرة يأتي ذكرها وحدها بلا ذكر للأرض معها ومثال ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾[2]، فالسماوات هنا يريد بها الطبقات الأثيرية حيث سبق ذكرها ذكر الأرض ولم يجمع بينهما واو عطف. وقال الله في سورة المؤمنين ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾[3]، فالسماوات هنا يريد بها الطبقات الأثيرية حيث لم يقرنها بذكر الأرض بل قرنها بذكر العرش.

فالسماوات الأثيرية هي الجنان التي تسكنها النفوس الصالحة يوم القيامة، واليوم هي مسكن الملائكة، وقد جاء في إنجيل متى، الإصحاح الخامس، قال عيسى

(١) سورة يس/ من الآية: ٤٠.

(٢) سورة الإسراء/ الآية: ٤٤.

(٣) سورة المؤمنون/ الآية: ٨٦.

لتلاميذه (فإني أقول لكم أنكم إن لم يزد برّكم على الكتبة والقديسين لن تدخلوا ملكوت السماوات) يعني لن تدخلوا الجنان، ويريد بها السماوات الأثيرية.

أما العرش فهو طبقة أثيرية أيضاً وموقعه فوق الجنان أي فوق السماوات الأثيرية، فهنّ الحاملات للعرش، يقول الله تعالى في سورة غافر ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾[1]. فالذين يحملون العرش هم الملائكة، وليس المراد بحمله حقيقياً بل معنوياً، فكما أننا نحمل السماء أي (الطبقات الغازية) لأنها فوقنا، كذلك السماوات الأثيرية تحمل العرش لأنه فوقهم، ولكن ما معنى قوله تعالى في سورة هود ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ ﴾[2]. يعني قبل أن يخلق الخلق كان عرشه على الماء حيث لم يكن في ذلك اليوم سماوات أثيرية، ولما خلقها بالتدريج جعل عرشه عليها، والماء كان بخاراً في ذلك اليوم منتشراً في الفضاء كما هي الحالة اليوم في الأمطار، لأن المياه تتبخر من الأرض وترتفع في السماء ثم تكون ماءً وتنزل مطراً، فالعرش في ذلك اليوم كان فوق البخار المنتشر في الفضاء، ولما خلق الله السماوات الأثيرية صارت تحت العرش فحملته.

والعرش أول طبقة أثيرية تكونت من أول أرض خلقها الله تعالى ولم يكن في ذلك اليوم تحت العرش سوى البخار الذي عبر الله عنه بالماء، ولما خلق الله أرضاً ثانية تكونت منها طبقة أثيرية ثانية أيضاً فصارت تحت العرش، وهكذا الثالثة والرابعة حتى

---

(١) سورة غافر / الآية: ٧.

(٢) سورة هود/ الآية: ٧.

أصبحت سبع سماوات أثيرية تحت العرش، قال الله تعالى في سورة المؤمنون ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1].

أما السماوات المادية فهي الكواكب السيارة وهي صلبة، وهي المعروفة بعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وغير ذلك، وعددها تسعة، ويأتي ذكرها في القرآن مع ذكر الأرض، فكل آية في القرآن يأتي فيها ذكر السماوات المقرونة بذكر الأرض يريد بها الكواكب السيارة، ولكن على ثلاثة شروط، أولاً أن يكون ذكر السماوات قبل ذكر الأرض، ثانياً أن يكون ذكر السماوات مقروناً بذكر الأرض مباشرة، ثالثاً أن يجمع بينهما واو عطف، فإذا كانت الآية مستوفية هذه الشروط الثلاثة فإنه تعالى يريد بها الكواكب السيارة، ومثال ذلك قوله في سورة الأحقاف ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾[2]. فهذه الآية استوفت الشروط الثلاثة، فالسماوات هنا يريد بها الكواكب السيارة.

ومثال آخر قوله تعالى ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[3]. فالسماوات هنا يريد بها الكواكب السيارة والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ فإن الملائكة لا تموت ولا تنبعث لأنها مخلوقات أثيرية وإنما البحث للماديين الذين يسكنون الكواكب السيارة.

أمّا قوله تعالى في سورة الحج ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[4]. فقوله تعالى ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ يقصد بالسماء هنا (الطبقات الغازية)

---

(١) سورة المؤمنون/ الآية: ٨٦.

(٢) سورة الأحقاف/ الآية: ٣.

(٣) سورة النمل/ الآية: ٦٥.

(٤) سورة الحج/ الآية: ٦٥.

فالله يمسك هذه الطبقات أن تقع على الأرض فتهلك الناس لأنها خانقة، فالحق جعل تلك الغازات الخانقة والسامة خفيفة الوزن لكي ترتفع في السماء لئلا تضر الناس إلا قبل يوم القيامة فإن هذه الغازات تنزل إلى الأرض ويختلط بعضها في بعض بسبب اختلال نظام الكون فتكن كالدخان كما كانت عند مبدءها.

واعلم أن الكواكب السيارة كانت قطعة واحدة مع الأرض، ثم تشققت فصارت تسع قطع، وتلك الأرض كانت شمساً في قديم الزمان، ولما انتهت حياتها برد وجهها فصارت أرضاً، ثم انفجرت فصارت تسع قطع وأخذت هذه القطع تدور حول شمس جديدة، وهذه السيارات تقوم قيامتها دفعة واحدة لأنها مجذوبات للشمس الحالية، فإذا انتهت حياة الشمس الحالية تتفجر ثم تتحول إلى قطع أخرى بعد أن تبرد وتدور حول شمس جديدة وهكذا يبتدئ خلق آخر غيرنا.

قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1]. فقوله ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ ﴾ يعني كانتا قطعة واحدة فشققناهما وجعلناهما قطعاً كثيرة، لأن الرتق ضد الفتق – وقال تعالى في سورة الأنعام ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2]. فقوله تعالى ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يعني مشققهما ومقطعهما بعدما كانتا قطعة واحدة، فالفطر هو الشق، وقال تعالى في سورة الطارق ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ﴾[3]. أي ذات الشق، وهذه من صفة الأرض فإنها تصدعت في بدء تكوينها وسوف تتصدع عند قيام قيامتها.

---

(١) سورة الأنبياء/ الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأنعام/ الآية: ١٤.

(٣) سورة الطارق/ الآية: ١٢.

والشمس التي كانت قبلنا انتهت حياتها، فتشققت سياراتها فصارت نيازك، وكذلك شمسنا الحالية فإنها ستتمزق سياراتها وتؤول إلى نيازك، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾[1]. فقوله تعالى ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ يعني في ألفي سنة لأن اليوم الواحد من أيام الله يقابل ألف سنة من أيامنا، وقد جاء في الزبور – المزمور التسعون – صلاة لسيدنا موسى (عليه السلام) قال: ((أنت الله ترجع الإنسان إلى الغبار، وتقول ارجعوا يا بني آدم، لأن ألف سنة في عينيك مثل يوم))، أما قوله تعالى ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أي بمدة ألفي سنة وهذه المدة التي برد فيها وجه الشمس التي انتهت حياتها، وأما قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ الرواسي هي الجبال، وذلك لما تشققت تلك الشمس التي صارت أرضاً أخذت النيازك تتساقط عليها فصارت جبالاً، فأكثر الجبال التي على وجه الأرض أصلها نيازك، أما قوله تعالى ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أي زاد حجمها من عدة أشياء، أولاً أخذت القشرة الأرضية تزاد برودتها شيئاً فشيئاً، ثانياً سقوط النيازك عليها زاد في حجمها، ثالثاً سقوط الذرات عليها (وهي الذرات التي نراها في أشعة الشمس إذا دخلت في الغرفة من النافذة) ومنشأ هذه الذرات من نيازك تناثرت أجزاؤها في الفضاء بعد أن قامت قيامتها، رابعاً الفلزات زادت بحجمها وذلك باتحادها مع العناصر الأخرى، مثلاً الأوكسجين يتحد مع الحديث فيزيد في حجمه وينتج من ذلك أوكسيد الحديد، وثاني أوكسيد الكاربون يتحد مع الكلس مكوناً

---

(١) سورة فصلت/ الآيات: ٩- ١٢.

كاربونات الكالسيوم، والنيتروجين يتحد مع الصوديوم والبوتاسيوم مكوناً نترات الصوديوم ونترات البوتاسيوم، وهكذا تتحد الغازات مع أكثر الفلزات فتزيد أحجامها، وأما قوله تعالى ﴿ فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ ﴾ معناه خلق كل ذلك في مدة أربعة آلاف عام فصار المجموع ستة آلاف عام تمت برودة الأرض بمدة ألفي عام.

ونظير هذه الآيات قوله تعالى في سورة النازعات ﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ ﴾[1]. وإنما أضاف الليل والنهار إلى السماء في قوله ﴿ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ لأن أشعة الشمس تضرب على الطبقات الغازية فتعكسها الغازات إلى الأرض، وقوله ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ أي زاد في قشرتها الباردة، ولا تزال هذه الكلمة تستعمل عند العرب إذ يقول الرجل لصاحبه املأ الكيس دقيقاً وادحيه، أي زد عليه من الدقيق حتى يمتلئ تماماً. وقوله تعالى في سورة فاطر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١ ﴾[2]. فقوله تعالى ﴿ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ يعني يمسك الكواكب والأرض بقوة جاذبية الشمس ﴿ أَن تَزُولَاۚ ﴾ معناه أن لا تزولا عن الشمس ويتفرقا في الفضاء ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ ﴾ يوم القيامة ﴿ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ فهل يقدر أحد على إمساكها غير الله إذا زالت عن الجاذبية وتمزقت. ولكن نزول هذه الكواكب عن جاذبية الشمس يوم القيامة لأن الشمس تتشقق وتنتشر أجزاؤها في الفضاء، وإذا تشققت فإن الكواكب تتمزق معها، وذلك قوله في سورة الانفطار ﴿ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴾[3].

---

(١) سورة النازعات/ الآيات: ٢٧ -٣٠.

(٢) سورة فاطر/ الآية: ٤١.

(٣) سورة الانفطار/ الآية: ٢.

وقال تعالى في سورة فصلت ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾[1]. فقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ على الجمع بينما السماء والأرض مثنى، فلما الجمع هنا، إن الله تعالى قال للسماء والأرض بصيغة المثنى قبل أن تتشقق، ثم بعد أن تشققتا، أي أن الأرض أصبحت تسع قطع والسماء هنا يريد بها السماوات الغازية أصبحت سبع طبقات، فهنا صح أن يجيبا على الجمع ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾.

واعلم أن سبب الجاذبية هو الحرارة وسبب الحرارة هو الحركة، فكل جرم حار في جاذبية، وكل جرم بارد ليس فيه جاذبية، فكل جرمين أحدهما حار والآخر بارد يكون بينهما تجاذب لأن الحار يجذب البارد وإذا اتفق جرمان باردان فلا يكون بينهما تجاذب، ولما كانت الشمس جرماً ملتهباً أخذت تجذب ما حولها من الأجرام اللاتي أقل منها حرارة وهي الكواكب، وكذلك الأرض لما كان جوفها ملتهباً أخذت تجذب ما حولها من الأجرام وهما النيازك والقمر، وكذلك باقي الكواكب تجذب إليها الأقمار والنيازك نظراً لجوفها الحار.

وليست الحرارة إلا سبباً ثانوياً للجذب، وأما السبب الرئيس فهو دورة الجزيئات حول النواة، لأن الأجرام السماوية تتألف من نواة وجزيئات تدور حولها بسرعة هائلة فتسبب فيها حرارة شديدة فتلتهب وتكون سديم لولبي، ثم نجماً ثم شمساً، فإذا انتهت حياتها تكون أرضاً، فالحرارة التي في الأجرام ناشئة إذن من دورة الجزيئات حول النواة بسرعة هائلة، كما أن حرارة الجسم عند الإنسان ناشئة عن الدورة الدموية. أما القمر فهو قطعة أرض صخرية انفصلت من أرضنا، وكذلك أقمار باقي الكواكب، وذلك لأن الأرض عندما تشققت صارت تسع قطع وأخذت هذه القط تدور حول شمس جديدة هي شمسنا الحالية، ولما كانت تلك القطع (الكواكب) غير كروية بل لها زوائد أخذت

---

(١) سورة فصلت/ الآية: ١١.

تلك الأطراف تنفصل منها سبب دورانها حول نفسها وتبتعد عنها فصارت أقماراً تدور حول الكواكب لأنها باردة والكواكب حارة فانجذبت إليها.

قال تعالى في سورة الرعد ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾[1]. فقوله ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ ﴾ معناه نفصل عنها أطرافها لتكون كروية ولتكون الأطراف أقماراً تنير لهم.

وقوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[2]. والمعنى نقّصنا حجمها في الماضي بأن قطعناها إلى تسع قطع، ثم أنقصنا منها أطرافها لتكون الأطراف أقماراً تنير لهم، ثم ننقصها في المستقبل بتمزيقها فنجعلها نيازك، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾[3] يعني صفتها التصدع فقد تصدّعت في الماضي وستتصدع في المستقبل.

علماً أن أغلب الكواكب لها أقمار، وقد اكتشف الفلكيون لأورانوس ثمانية أقمار ولزحل تسعة، وللمشتري ثمانية وللمريخ قمران ولنبتون قمر واحد، والدليل العلمي ليس عند الفلكيين باكتشافهم هذه الأقمار ولكنه عن الحق تعالى أيضاً عندما يقول ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ ... ﴾[4]. فقوله ﴿ مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ ﴾ على الجمع دليل على وجود أكثر من قمر في الكواكب.

وليس لهذه الكواكب أقمارٌ فحسب بل لها نيازك مجذوبة لها، والنيازك أجرام باردة لا حرارة فيها، وهي مختلفة الأحجام، فمنها بقدر الجبل ومنها ما هو أكبر ومنها ما هو أصغر. وأصل النيازك بقايا كواكب تمزقت في قديم الزمان بعد أن قامت

---

(١) سورة الرعد/ الآية: ٤١.

(٢) سورة الأنبياء/ من الآية: ٤٤.

(٣) سورة الطارق/ الآية: ١٢.

(٤) سورة الرعد/ الآية: ٤١.

قيامتها، ويكثر فيها وجود الفلزات كالحديد والرصاص والنيكل والبلاتين وغير ذلك، وهذه النيازك كثيرة السقوط على الأرض، ومن طريق ما يروى أنه سقط في سنة ١٦٢٠ في البنجاب حجر جوي عمل من حديده الإمبراطور (جهانكير) سيفاً كانت العامة تدعوه بسيف الصاعقة.

ويوجد في المتحف الأمريكي بنيويورك نيزك يزن ٣٦ طناً، وحجمه ٣٨٥ قدماً مكعباً. وسقط نيزك في جهة سيبريا عام ١٩٠٨م كبير جداً ويقدر وزنه بأكثر من ١٣٦ طناً.

وقد سقط نيزك في العراق قرب مدينة كركوك فتحطم وزنه ٣٥ كيلو غرام، وذلك في (١٩٧٧/٨/٢٠م) وكان سقوطه نهاراً ولونه رمادي، وقد نقلوا أحجاره إلى المتحف.

والخلاصة أن هذه النيازك كانت كواكب فتمزقت لمّا قامت قيامتها، وكذلك أرضنا تتمزق وتكون نيازك إذا قامت قيامتها، والنيازك يأتي ذكرها في القرآن الكريم بلفظة (جبال)، قال الله تعالى في سورة هود ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾[1]. فالحجارة هنا يريد بها النيازك، وقال عز من قائل في سورة سبأ ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[2]. والمعنى إن نشأ نسقط عليهم نيازك من الفضاء، لأن الكسف معناه القطع ويريد بها النيازك، وقال تعالى في سورة الطور ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾[3]، فالكسف يريد بها النيازك.

---

(١) سورة هود/ الآيتان: ٨٢ -٨٣.

(٢) سورة سبأ/ من الآية: ٩.

(٣) سورة الطور / الآية: ٤٤.

والجدير بالذكر أن النيازك التي تسقط على الأرض يكشف العلماء فيها مكونات أساسية لبروتينات الحياة، كما في نيزك مدينة ميركسن في أستراليا، حيث وجد العلماء في هذه النيزك مواد عضوية من النوع الموجود على سطح الأرض. وهذا الاكتشاف يدل على وجود أحياء خارج الأرض.

أما الجبال فهي في الأغلب تتكون من النيازك التي سقطت على الأرض، قال الله في سورة النمل ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾[1]، فالرواسي يريد بها الجبال، فهي نيازك رست على الأرض أي ثبتت عليها ورسخت فيها. وقال الله في سورة الحجر ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾[2]، فقوله تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ يعني ألقى النيازك من الفضاء فرست فيها وصارت جبالاً.

وهناك جبال تكونت من عوامل التعرية والتآكل ويدل على ذلك قوله تعالى في سورة فاطر ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾[3]، والمعنى أخرجنا بماء المطر جبالاً جدداً غير الجبال القديمة، وذلك لأن الأمطار تذيب غاز ثاني أوكسيد الكاربون الموجود في الهواء فيتكون حامض كاربونيك، فيذيب هذا الأخير من الأحجار الكلسية التي في الجبال فتنزل إلى البحار أو الأراضي المنخفضة فتتحجر ثانية، وهكذا تستمر العملية على مر السنين حتى يصبح جبل جديد.

وأما قوله ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ تقديره: وكوّنا بماء المطر غرابيب سود، ومفرده غربيب، وهو الفحم، ويقال اسود غربيب في سواده لأنه يشبه الفحم، ويريد بذلك الفحم

---

(١) سورة النحل/ الآية: ١٥.

(٢) سورة الحجر/ الآية: ١٩.

(٣) سورة فاطر/ الآية: ٢٧.

الحجري لأنه يتحجر بواسطة الكاربونيك المتكون بسبب الأمطار، وإنما قال تعالى ﴿ وَغَرَابِيبُ ﴾ على الجمع ولم يقل (غربيب) على الإفراد لأن الفحم الحجري على أربعة أقسام.

أمّا الشهب فهي من قسم النيازك إلا أنه يكثر فيها وجود العناصر القابلة للاشتعال كالكبريت والفسفور والصوديوم والبوتاسيوم، وهذه الشهب تلتهب عند اصطدامها بجرم آخر، أو عند ملامستها شيئاً آخر يتحد معها.

وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة الصافات في قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾(1)، وقوله تعالى في سورة الجن ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾(2). وكثيراً ما أهلك الله الأمم الكافرة بالشهب والنيازك والمذنبات في قديم الزمان، ومن ذلك قوم لوط أخذتهم الزلزلة ثم خسف الله بهم الأرض فصار عاليها سافلها، وصار ذلك الخسف بحيرة لسبب عمقه حيث صار مصباً لمياه الأمطار، وإلى اليوم آثار ذلك معروف وهي بحيرة بفلسطين تسمى (بحيرة قوم لوط) أو كما يسميها الناس في الوقت الحاضر (البحر الميت)، وتحيط بها أحجار النيازك والشهب.

وإذا عدنا من حديثنا من السماء إلى الأرض وجدنا الزلازل والبراكين، حيث تحدث بواسطة الغازات المضغوطة في جوف الأرض الناتجة من النار الملتهبة في باطنها، لأن الغازات تندفع فلا تجد لها مخرجاً، فيهتز سطح الأرض اهتزازاً على مقدار ذلك الضغط، وإذا اشتد الاهتزاز وكانت هناك مواد منصهرة في باطن الأرض وحاولت الخروج وطاوعتها قشرة الأرض، فهناك يكون البركان.

---

(1) سورة الصافات/ الآية: ١٠.

(2) سورة الجن/ الآية: ٨.

وقد أهلك كثيراً من الأمم بهذه الزلازل والبراكين، ومن تلك الأمم الكافرة قوم صالح وقوم شعيب أهلكهم الله بالزلزال ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [1]. فقوله تعالى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ يعني رجفة في الأرض وهي الزلزلة. وكثيرٌ من الناس هلكوا في هذا العصر أيضاً بسبب الزلزال والخسف والبراكين، فقد حدث زلزال في إسبانيا سنة ١٨٨٤م مات جراءه آلاف الناس، وزلزلت اليابان سنة ١٨٩١م ومات جراء الزلزال آلاف الناس وتحطمت آلاف المنازل، وفي سنة ١٩٠٢م زلزلت إحدى مدن تركستان فمات آلاف الناس، وفي سنة ١٩٠٨م ضرب زلزال مضيق مسينا بإيطاليا فأتلفه وخرب مدن كاملة، ومات آلاف الناس.

وفي الحقيقة في ضوء هذه الوقائع لم تعد نهاية العالم غير مفهومة، فنحن على علم بالقيامات الصغرى التي تقع على سطح الأرض، ذلك أن ظاهرة الزلازل هي قيامة من نوع مصغر، فبطن الأرض يحتوي على مادة شديدة الحرارة، نشاهدها عندما ينفجر البركان، وهذه المادة تؤثر على سطح الأرض من شتى الطرق، فمنها ما تصدر عنه أصوات مروعة رهيبة، وما نحس به من الهزات الأرضية، هي حملة الطبيعة ضد الإنسان الذي لا يملك إزاءها شيئاً، فهي نذير يتذكره الإنسان بأنه يعيش فوق مادة حمراء ملتهبة جهنمية، لا يفصله عنها سوى قشرة جبلية رقيقة، لا يزيد سمكها عن خمسين كيلو متراً، وهذه القشرة ليست بالنسبة إلى الكرة الأرضية إلا بمثابة القشرة من التفاح. يقول عالم الجغرافيا جورج جاموف (إنه هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء، ومدننا الحضارية المكتضة بالسكان، وبكلمة نحن واقفون على ظهر لغم (ديناميت) عظيم، (ومن الممكن أن ينفجر بأي وقت ويدمر النظام الأرضي بأكمله).

إن هذه الزلازل قيامة، فعندما تنفجر الأرض بصوتها المخيف، ودويها الرهيب، وعندما تتساقط الجدران، وسقف الأبنية المسلحة الفخمة، حتى كأنها أوراق،

---

(١) سورة الأعراف/ الآية: ٧٨.

وعندما يصبح أعلى الأرض أسفلها وأسفلها أعلاها، وعندما تحل الخرائب الموحشة محل المدن العامرة الكبرى في ثواني معدودة، وعندما تسير طوابير النعوش، وتتراكم على ساحات المدن وطرقها تراكم الأسماك على ساحل البحر – فتلكم قيامة الزلازل.

وفي تلك اللحظة يشعر الإنسان بعجزه أمام هذه القوى العظيمة، فإن الزلازل لا تقرع أبواب المدن إلا بغتة، دون سابق إنذار، والبلية كل البلية في أن الإنسان لا يستطيع أن يتنبأ بمكان الزلازل، ولا موعد وقوعه، وهذه الظاهرة سوف تفاجئنا يوماً عندما يحين موعد قيام قيامة الأرض.

وهذه هي حال الفضاء الخارجي، فالكون فضاء لا حدود له، تدور فيه نيران لا حصر لها بالملايين، تدور بسرعة مخيفة لا يمكن تصورها، وهذه السرعة يمكن أن تتحول إلى صدام في يوم ما، وفي تلك اللحظة الرهيبة يكون ما في الكون أشبه بآلاف من القاذفات النفاثة المليئة بالقنابل النووية، وهي تواصل رحلتها وتصطدم ببعضها كلها مرة واحدة، إن اصطدام الأجرام السماوية ليس بغريب مطلقاً ولكن عدم اصطدامها هو الغريب بالفعل، فإذا استطعنا أن نتصور هذا الاصطدام، فهذا هو الواقع الذي نسميه القيامة.

إذن عندما نقرأ الآية الكريمة من سورة الأنعام ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[1]. فقوله تعالى ﴿ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ يريد بذلك النيازك والصواعق والشهب والمذنبات، فهذه تأتي من فوق، وأما قوله تعالى ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ يريد بذلك الخسف والزلازل والبراكين والغرق.

أما البحار فهي أيضاً بما تضم من أودية ذات عمق سحيق تقيم عملية من التوازن بينها وبين الجبال، فالجبال على الأرض والأودية العظيمة العمق في البحار

---

(١) سورة الأنعام/ الآية: ٦٥.

تقوم بعملية توازن الأرض ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1].

ولقد كشف علماء الجغرافيا حديثاً (قانون التوازن) وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة. فمن المفهوم أن المادة – الأقل وزناً – ارتفعت على سطح الأرض، وهي الجبال، في حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية وهي التي نراها الآن في شكل بحار، وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظ على توازن الأرض.

وتوجد في البحار مثل وديان البر، ولكن وديان البحر أكثر غوراً وأبعد عمقاً، كما أنها بعيدة عن المجال التجريبي للإنسان ويبدو أنه قد حدثت مغارات عميقة في البحار (ويبلغ عمق بعض هذه الوديان ٣٥ ألف قدم عن سطح الأرض، وهذا العمق أعلى من أعظم جبال العالم ارتفاعاً، وقسم من هذه الوديان البحرية لو وضعت فيها قمة جبل (أيفرست) لاختفت فيها.

ومن الظواهر المحيرة أن هذه الخنادق البحرية توجد بالقرب من السواحل البرية بدلاً من أن توجد في أعالي البحار، ومن ذا يستطيع أن يعلم قدر ذلكم الضغط الهائل الذي أحدث هذه الخنادق السحيقة في قاع البحار. ولكن قرب هذه الوديان من الجزر والبراكين يدل على أن هناك علاقة بين (طول الجبال وهذه الأودية البحرية) وهو أن الأرض يقوم توازنها على الارتفاع والعمق في أجزائها المختلفة، ويرى بعض كبار علماء الجغرافيا أنه من الممكن أن تكون الأغوار البحرية علامات على جزر قد تظهر في المستقبل، وذلك لأن الرواسب والمخلفات لكل من البر والبحر تترسب في هذه الوديان، وقد سويت مناطق كبيرة من هذه الوديان بعد أن ملأتها هذه الرواسب، ولهذا من الممكن – بناءً على عدم التوازن الذي يحدث عن هذه العملية أن تبرز جبال جديدة في أي وقت، أو تظهر سلسلة جديدة من الجزر.

---

(١) سورة النحل/ الآية: ١٥.

وعلى كل حال، لا توجد نظرية في ضوء المعلومات الحالية للإنسان لتقوم بتفسير الوديان البحرية، وهذه المغارات الدائمة البرودة، والتي توجد في ظلام حالك، وتحت ضغط قدره سبعة أطنان على كل بوصة – لا زال ذلك كله لغزاً أمام الإنسان، كألغاز البحر الأخرى.

٣. ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾﴾[1].

الشمس جرم ملتهب تدور حول نفسها من اليمين إلى الشمال، وتكمل دورتها بمدة ٢٥ يوماً و٥ ساعات، وقد استدلوا على دورتها بواسطة بقع على سطحها، فرأوا تلك البقع تسير من اليمين إلى الشمال وبعد ٢٥ يوماً و٥ ساعات تصل إلى محلها الأول، والشمس أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة، ولكنها تتقلص كلما قلت حرارتها وبرد وجهها وبذلك يصغر حجمها لأنها قد (هرمت ودنى أجلها)، ومنشأ الشمس من النجوم، أي أنها كانت من أحد النجوم فجذبت إليها الأحجار النيزكية فصارت شمساً، حيث أنها أخذت تنمو وتكبر بواسطة النيازك التي انجذبت لها، والخلاصة أنها كانت نجمة فأصبحت شمساً.

وسوف تنتهي حياتها كما انتهت حياة من قبلها من الشموس، جاء في إنجيل متى في الإصحاح الرابع والعشرين قال: (وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس، والقمر لا يعطي ضوءه، والنجوم تسقط من السماء وقوات السماوات تتزعزع) يعني الجاذبية تنعدم. فعندها يقل ضوء الشمس ثم يبرد وجهها بمدة ألفي سنة فتكون أرضاً، ثم تنفجر وتكون تسعة عشر قطعة وتنجذب إلى أقرب شمس لها، ثم يبرد وجه تلك

---

(١) سورة التكوير/ الآيات: ١ -١٣.

القطع (الكواكب) فتكون كواكب تدور حول الشمس الجديدة ثم يخلق الله تعالى فيهن الأحياء وتكون مسكونة كأرضنا.

وهكذا كلما انتهت حياة الكواكب تمزقت فصارت نيازك وقامت تلك الشمس الميتة مقامهنّ فتكون كواكب جديدة، وأما النيازك فإنها تتمزق أيضاً وتكون ذرات منتشرة في الفضاء، وما يبقى من النيازك تجذبها الشمس إليه.

وعلى هذا المنهج فالكون مستمر حيث كلما تمزقت مجموعة شمسية قامت أخرى مقامها، قال الله تعالى ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ومعناه تقطعت وصارت كرات عديدة أي صارت كواكب كروية، وقال عز من قائل ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[1]. فالأرض هنا يريد بها كلها، يقول الله تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[2]. أي أن الأرض ومعها كواكب الأرض التي تمزقت منها، والمعنى يوم تبدل الأرض التي تمزقت فصارت كواكب بأرض غيرها تقوم مقامها فتتكون كواكب أيضاً. وهي شمسنا الحالية تنتهي حياتها ثم تنفجر فتكون كواكب لأرض غيرها، قال الله تعالى في سورة المدثر ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾[3]، فسقر هي الشمس الجديدة التي تظهر بعد انفجار شمسنا الحالية، وأما قوله تعالى ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ أي تتراءى للناس اليوم من بعيد وكأنها نجمة صغيرة. وأما قوله تعالى ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أي عليها جاذبية تسعة عشر كوكباً، وذلك لأن شمسنا إذا انفجرت تكون تسعة عشر كوكباً تجذبهن سقر، وقال تعالى أيضاً ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾[4]، أي أن سقر من أحدى الشموس الكبيرات الحجم.

---

(١) سورة إبراهيم/ الآية: ٤٨.

(٢) سورة الزمر/ من الآية: ٦٧.

(٣) سورة المدثر/ الآيات: ٢٦ -٣٠.

(٤) سورة المدثر/ الآية: ٣٥.

وقد يسأل سائل هل في الكون غير شمسنا؟ نعم هناك شموس كثيرة ولكن لبعدها عنّا نراها كالنجوم، وهذه الشموس الكثيرة المنتشرة في الفضاء ليس لها كواكب لأنها غير جاذبة، وليس في الكون مجموعة شمسية غير مجموعتنا، ولكن إذا تمزقت قامت أخرى مقامها كما قامت شمسنا مقام التي قبلها.

وتنشأ من هذه الشمس المذنبات، وهي أجرام نارية ملتهبة تسبح في الفضاء، أي أنها شرارات تساقطت من الشمس فأخذت تسبح في الفضاء، وهي لا تدور حول نفسها كما تدور الأجرام الكروية، بل تسير سابحة في الفضاء، لأنها أجسام مستطيلة، قال الله تعالى في سورة المرسلات ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1]، أي أن حجم كل شرارة من هذه الشرارات التي ترميها في الفضاء كحجم قصر من القصور الواسعة المشيدة، وشررها هي المذنبات ولذلك قال تعالى ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ والشاهد على ذلك التاء الطويلة الموجودة في القرآن، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ بِشَرَرٍ ﴾ على الجمع ولم يقل بشرارة على الإفراد، والدليل الثاني قوله تعالى ﴿ صُفْرٌ ﴾ على الجمع ولم يقل صفاء على الإفراد، والجمالة حبل السفينة وجمعه جمالات، فإن الله تعالى شبّه أذناب المذنبات بحبال السفن طولاً.

وقد جاء ذكر المذنبات في القرآن الكريم بلفظة (نجم)، قال الله تعالى في سورة الطارق ﴿ وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ﴾[2]، ومعناه المذنب المشتعل، وقال تعالى في سورة الواقعة ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾[3]، أي بمواقع المذنبات، وهو قسم تهديد، وقال تعالى في سورة النجم ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾[4]،

---

(١) سورة المرسلات/ الآيات: ٣٢-٣٤.

(٢) سورة الطارق/ الآيات: ١- ٣.

(٣) سورة الواقعة/ الآية: ٧٥.

(٤) سورة النجم/ الآية: ١.

ومعناه قسماً بالمذنب إذا سقط على الأرض، وجواب القسم قوله تعالى ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[1]، وصاحبكم يريد به محمد (ﷺ)، وقال تعالى في سورة المرسلات ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾[2]، ومعناه فإذا المذنبات طمست في الأرض واختفت فيها، وذلك لأنها تسقط على الأرض إذا اقترب يوم القيامة، لأن الأرض تنتهي حرارتها فتكون عرضة لسقوط المذنبات، وقال الله تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴾[3]، فالخنس يريد بها ذوات الذنب لأنها خنست عن أنظارنا اليوم أي اختفت، وهي التي تكنس إلى الأرض قبل يوم القيامة وتختفي فيها، وهي الجواري تجري اليوم في الفضاء سابحة ليس لها ملجأ.

ولقد أهلك الله أمماً كثيرة من الكافرين بالمذنبات وأنذر قريشاً بسقوط مذنبات على الأرض في آخر الزمان، ولو رأى إنسان مثل هذا الاصطدام العظيم، لخيل إليه وهو يموت أنه يوم الساعة والدنيا تبيد، ولسنا نستطيع إلا تخيّلاً أن نسمع ونرى ذلك الدمار الذي يصم الآذان ويعمي العيون، دوي متتابع من الرعد المدمر، والسنة من النار، وستور من الدخان والحصى تندفع من الفضاء.

وفي أمريكا سنة ١٩٠٨م، كان هناك مذنب يدنو من الأرض، وقد كان السعد في ذلك اليوم حليف الإنسانية، ذلك أن المذنب المذكور لم يسقط في أحدى ولايات أمريكا وإنما سقط في منطقة غير مأهولة، وإلا لكان ذلك إحدى كوارث التاريخ الكبرى.

وننتقل مع حديثنا عن المذنبات إلى القديم ونقرأ قوله تعالى ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾[4]، فالواو من قوله ﴿وَٱلسَّمَآءِ ﴾ واو قسم، والمعنى قسماً

---

(١) سورة النجم/ الآية: ٢.

(٢) سورة المرسلات/ الآية: ٨.

(٣) سورة التكوير/ الآية: ١٥.

(٤) سورة الطارق/ الآيات: ١ -٣.

بالسماء وقسماً بالمذنب الذي طرقها، والسماء هنا يريد بها سماء نينوى أي الموصل ﴿ وَٱلطَّارِقِ ﴾ هو الذي يمر في الطريق ليلاً أي يسير فيه. والمعنى قسماً بسماء نينوى وقسماً بمن طرقها، ثم قال ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ وهذا تعظيم لشأن ذلك الطارق، ثم بين سبحانه ما هو ذلك الطارق فقال ﴿ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ يعني المذنب المشتعل.

وقصة هذا المذنب الذي ذكره الله تعالى في هذه السورة، أن نبي الله يونس (عليه السلام) لما دعا قومه إلى الإيمان، وهم أهل نينوى كذبوه وأبوا أن يؤمنوا، فدعا عليهم ووعدهم بالعذاب، فأرسل الله عليهم أحد المذنبات فطرق سماءهم، فلما رأوه آمنوا بالله وتضرعوا إليه فدفع الله عنهم العذاب. وهذا قسم تهديد، والمعنى إن لم تؤمنوا بي وتصدقوا رسولي يا أهل قريش ولمن جاء بعدهم فالأمر مستمر إلى قيام الساعة، أرسل عليكم أحد المذنبات كما أرسلت إلى أهل نينوى، وهذا كقوله تعالى في سورة المرسلات ﴿ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

٤. ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[2].

إن الأرض تدور حول نفسها وبذلك يتكون الليل والنهار، وأن سبب دورانها ناتج عن الحرارة التي في جوفها، وهذه الحرارة لا تدوم بل تنتهي وتبرد الأرض شيئاً فشيئاً على مر الدهور والأعوام، كما برد القمر وتوقفت دورته حول نفسه، فالأرض إذا انتهت من دورتها حول نفسها لا يبقى عندها تداول بين الليل والنهار، بل يكون الليل

---

(١) سورة المرسلات/ الآيات: ١٦ -١٨.

(٢) سورة القصص/ الآيتان: ٧١ -٧٢.

في جهة من الأرض ثابتاً إلى يوم القيامة، ويكون النهار في جهة أخرى ثابتاً إلى يوم القيامة، وذلك لأن الجهة التي تكون مقابلة للشمس يكون فيها نهار دائم لا ليل فيه، وأما الجهة التي تكون بعكس الشمس يكون فيها الليل دائم لا نهار يعقبه.

وقوله تعالى ﴿ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ إشارة إلى الجهة التي يكون فيها دليل دائم، والسرمدي هو الأبدي الذي تطول مدته. وأما قوله تعالى ﴿ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ إشارة إلى الجهة التي تكون مقابلة للشمس.

وقال تعالى في سورة المدثر ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1]، فالليل يريد به الليل الطويل، وقوله تعالى ﴿ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ يعني إذا أدبر عنكم فلا يعود بعد ذلك إليكم بل يكون النهار ملازماً لكم فتهلكون من حرّه، والصبح يريد به النهار الطويل.

وقال تعالى في سورة التكوير ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾[2]، فقوله تعالى ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ يعني إذا ثبت مكانه وطال زمانه، فقد جاء في أمثلة العرب قولهم، عسّ عليّ خبره أي أبطأ خبره. ويقولون في الذئب الذي لا يخاف من الكلاب ولا ينهزم إذا حمل عليه الراعي: ذئب عاسٌ، أي يثبت أمام الكلاب حتى يأخذ فريسته، فكلمة ﴿ عَسْعَسَ ﴾، ومشتقاتها تكون بمعنى (ثبت، أبطأ، مكث، دام، قاوم)، ومعنى الآية يكون كما يأتي: قسماً بذلك الليل الطويل إذا مكث وقسماً بذلك النهار الطويل إذا بان صبحه وأسفر ليله، وهذا قسم تهديد ووعيد بعذاب ذلك اليوم وليله.

---

(١) سورة المدثر / الآيات: ٣٢ -٣٤.

(٢) سورة التكوير / الآيات: ١٧- ١٩.

وقال تعالى في سورة الضحى ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾[1]، فقوله تعالى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ يعني إذا سكن ودام.

وقوله تعالى في سورة الفلق ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾[2]، فالغسق هو الليل المظلم الذي لا يطلع فيه القمر، ولفظة وقب معناه دخل، والمعنى: ومن شرّ ليل مظلم إذا دخل، ويريد به ذلك الليل الطويل الذي يكون في آخر الزمان، وقد أمر الله تعالى نبيه (ﷺ) أن يتعوذ من شرّه، ففي ذلك اليوم تعرج الملائكة والروح والأنبياء والصالحين إلى السماء، ولا يبقى على الأرض إلا الكافرين والفاسقين والمجرمين.

وتكون مدة وقوف الأرض عن الحركة إلى أن تقوم القيامة ألف سنة من سنيننا، قال الله تعالى في سورة السجدة ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ﴾[3]، والمعنى: تنزل الملائكة من السماء إلى الأرض ثم تصعد إليه في يوم كان مقداره ألف سنة، ويكون صعودها إلى السماوات الأثيرية، وإنما تترك المخلوقات الروحانية الأرض وتعرج إلى السماء لأن العذاب يحل في ذلك اليوم بأهل الأرض، وقال عز من قائل في سورة الحج ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧ ﴾[4]، يعني يوماً طوله ألف سنة معدٌ لعذابهم.

والكواكب في الفضاء لا تقف عن دورتها دفعة واحدة بل يكون الأمر بالتدريج، فالصغير منها يقف أولاً ثم الكبير وبعدها الأكبر وهكذا، ويمكننا أن نستدل

---

(١) سورة الضحى/ الآيات: ١ -٣.

(٢) سورة الفلق/ الآيات: ١ -٣.

(٣) سورة السجدة/ الآية: ٥.

(٤) سورة الحج/ الآية: ٤٧.

على وقوف الأرض بوقوف عطارد والزهرة، فإذا علمنا يوماً أن الزهرة لا تدور حول نفسها فعندها نعلم بأن الأرض قد جاء دورها وستقف عن دورتها وأن العذاب سيحل بأهلها. فأصغر الكواكب هو عطارد ثم يأتي الزهرة ثم يأتي كوكب الأرض وهكذا.

يقول الله تعالى في سورة الفجر ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾[1]، فالواو هنا واو القسم، والفجر هو الموقع الذي يكون ما بين الليل والنهار وذلك عند وقوف الأرض عن دورتها، لأن القسم هنا مضارع تدل عليه لفظة (إذا) من قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ فهذه الليالي العشر تحل عندما تقل الحرارة التي في جوف الأرض، فعندها تكون دورتها بطيئة جداً بحيث يكون طول النهار مدة ثلاثة أشهر، وكذلك يكون طول الليل، فإذا أكملت عشرة ليالي طوال تقف عن دورتها لأن الحرارة التي في جوفها تنتهي، وعند انتهاء الحرارة كلياً يكون النهار طوله ألف سنة، ويكون الليل كذلك ثم تقوم القيامة.

وقوله تعالى ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ الشفع زوج، والوتر فرد، فقوله تعالى والشفع يشير إلى عطارد والزهرة لأنهما زوج يقفان قبل الأرض، أي تقف الحرارة بجوفهما، قبل الأرض، والوتر، يريد به المريخ لأن حرارة جوفه تقف بعد الأرض، وهذا قوله تعالى ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ أي ينقل الليل الطويل من عطارد إلى الزهرة ثم إلى الأرض فالمريخ، والمعنى: سوف ترون يا أهل الأرض ما يحلّ بكم من العذاب عن وقوف الكواكب وبما فيها الأرض عن دورتهما وسيادة الليل الذي يطول ألف سنة وكذلك النهار، وقوله تعالى ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾[2]، أي هل يكفي هذا الوعيد على وعظ من يتعظ وزجر من ينزجر.

---

(١) سورة الفجر / الآيات: ١ -٤.

(٢) سورة الفجر / الآية: ٥.

ولكن ما سبب توقف عطارد والزهرة والأرض وغيرها من الكواكب عن دورتها، بالإضافة إلى انتهاء الحرارة التي في جوف هذه الكواكب، نضيف لها سبباً آخر هو انطفاء الشمس، وذلك لكثرة النيازك والأحجار السماوية التي تبتلعها الشمس وبذلك تزداد كثافتها فيبرد وجهها وتكون ذات قشرة أرضية، فأي جرم سماوي تنتهي حرارته من النيازك والأحجار السماوية تجذبه الشمس إليها ويظهر بشكل بقع فتبتلعه. وتنطفئ الشمس عند انطفاء الزهرة لما تصيبه الشمس من النيازك والأحجار السماوية التابعة للزهرة، وبعد الزهرة تقف الأرض عن دورتها فعندها تنفصل النيازك والقمر عن جاذبية الأرض فتجذبها الشمس إليها وتبتلعها، وهذه الكواكب الثلاثة عطارد والزهرة والأرض كفيلة بإيقاف الشمس وانطفائها وبرودة وجهها خلال ألفي سنة.

ومن المعلوم أن الأرض إذا انتهت حرارتها وبرد جوفها فحينئذٍ تقترب من الشمس لأن الجاذبية تعمل فيها أكثر وكذلك باقي الكواكب كل كوكب يبرد يقترب من الشمس ولذلك قال تعالى في سورة الانشقاق ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴾[1]، أي لتركبون طبقات الجو طبقاً عن طبق، وتقتربون من الشمس. وعند اقتراب الأرض من الشمس فإن الحرارة تعمل فيها أكثر فتصيب الحرارة أضعاف ما كانت تصيبه، فيتسبب ذلك في تسخين قشرتها لأن حرارة الشمس لا تنقطع عنها، وذلك في الجهة التي تكون مقابلة للشمس، وأما الجهة الأخرى فإنها شديدة البرودة لأنها لا تصيب أشعة الشمس ويكون النهار معدوماً، فيعيش سكان الأرض حياة ضنكة لبعدهم عن أشعة الشمس، وأما سكان جهة النهار فيهلكون من شدة الحر.

ولكن الجهة التي تكون في الشفق أي ما بين الليل والنهار فهم أحسن حالاً من غيرهم، قال تعالى في سورة الإسراء ﴿ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ

(١) سورة الانشقاق/ الآيات: ١٦ -١٩.

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾[1]، فقوله تعالى ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ يعني ولا قرية ﴿ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا ﴾ ويريد بذلك من كان في جهة النهار لأنهم يهلكون من شدة الحر، وأما قوله تعالى ﴿ أَوْ مُعَذِّبُوهَا ﴾ يريد بذلك من كان في جهة الليل لأنهم يتعذبون بالبرد والجوع والأمراض.

فإذا كان ذلك الحر عند وقوف الأرض عن دورتها فعندها يحترق النبات، وتيبس الأشجار وتجف الأنهار وتتبخر البحار، فلا يبقى ماء ولا حبوب ولا حيوان، وذلك في جهة النهار؛ لأن الشمس لا تبقي لهم شيئاً فيهلكون حراً وجوعاً، قال الله تعالى في سورة الملك ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠ ﴾[2]، أي أصبح ماؤكم غائراً في الأرض، ويريد بذلك ماء الآبار فلا يبقى عندهم سوى مياه الآبار العميقة المالحة، ﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ أي فمن يأتيكم بماء صالح للشرب عذب معين إذا تبخرت مياهكم وذهبت أدراج الرياح، فالمعين معناه الجاري.

وكذلك عند انتهاء حرارة الأرض فإن القمر ينجذب إليها وعندها ينشق ويكون نصفين، قال الله تعالى في سورة القمر ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾[3]، وقد قالت قريش للنبي (ﷺ) مستهزئة (إن كنت نبياً فشقّ القمر نصفين فحينئذٍ نصدقك) فنزلت هذه الآية، ثم قال ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾[4]، والمعنى: لو أريناهم اليوم إحدى الآيات من انشقاق القمر أو ما شابه مما طلبوه ورأوا ذلك بأعينهم لما صدّقوك يا محمد لعنادهم وإعراضهم.

---

(١) سورة الإسراء/ الآية: ٥٨.

(٢) سورة الملك/ الآية: ٣٠.

(٣) سورة القمر/ الآية: ١.

(٤) سورة القمر/ الآية: ٢.

وقوله تعالى في سورة القيامة ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾[(١)]، فقوله تعالى ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴾ يعني إذا فزع البصر وتحيّر لما يرى من علامات القيامة التي كان يكذب بها من قبل، وقوله ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴾ معناه انشق القمر، لأن الخسف هو النازلة التي تنزل بالإنسان فتذله وتهلكه، ثم قال تعالى ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ لأن القمر إذا انفصل عن جاذبية الأرض أخذته الشمس إليها فيجتمع معها، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الشمس ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ ﴾[(٢)]، ومعناه إذا لحقها وانجذب إليها.

وكذلك النيازك في ذلك اليوم تسير نحو الشمس، عندما تنتهي حرارة الأرض، فحينئذٍ تنفصل النيازك والشهب والقمر عن جاذبيتها فتجذبهنّ الشمس، قال تعالى في سورة الكهف ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾[(٣)]، فلفظة جبال هنا يري بها النيازك، فقوله ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ أي نسير النيازك نحو الشمس، وقال تعالى في سورة النبأ ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾[(٤)]، وأصلها (أسرابا) والمعنى في ذلك اليوم تسير النيازك نحو الشمس أسرابً كأسراب القطا، وقوله في سورة التكوير ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾[(٥)]، أي سيرت النيازك نحو الشمس.

وفي ذلك اليوم تسقط المذنبات على الأرض، فهذه المذنبات كلما طرقت الأرض فإنها تهوي إليها، لأن المذنب يريد أن يجذب الأرض فلا يمكنه لأنها أكبر منه فيسقط عليها.

---

(١) سورة القيامة/ الآيات: ٧- ١٠.

(٢) سورة الشمس/ الآيتان: ١ -٢.

(٣) سورة الكهف/ الآية: ٤٧.

(٤) سورة النبأ/ الآية: ٢٠.

(٥) سورة التكوير/ الآية: ٣.

وهذا أكبر خطر على أهل الأرض في ذلك اليوم، يقول عز من قائل في سورة النجم ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾[1]، وقوله تعالى في سورة الواقعة ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾[2] والمعنى قسماً بذوات الذنب وقسماً بالمكان والزمان الذي تقع فيه، وقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ أي إنه حادث عظيم الخطر.

وقوله تعالى ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٨﴾[3]، فقوله ﴿لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾ يعني لا يُصرف كما صرف العذاب عن أهل نينوى، لأن المذنبات في ذلك اليوم تسقط على الأرض.

وقد جاء القسم في الآية الكريمة ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾[4]، بصيغة لم نسمع بها في كلام العرب ولا في أشعارهم، ولكن نحب أن نوضح هذه المسألة ونقول إن القسم في القرآن الكريم ينقسم إلى قسمين، وهو ماضي ومضارع، أي أن الله سبحانه يقسم تارة بحادث مضى وانقضى، وتارة بحادث لم يقع بل سيقع فيما بعد، وهو قسم تهديد، فالماضي معناه إن لم تؤمنوا فعلت معكم كما فعلت فيمن مضى قبلكم. وذلك كل قسم يتقدمه حرف (و) كقوله تعالى ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾[5]، فالنجم الثاقب أرسله الله تعالى إلى أهل نينوى حين لم يؤمنوا، والمعنى إن لم تؤمنوا بمحمد (ﷺ) أرسلت عليكم أحد المذنبات كما أرسلت على

---

(١) سورة النجم/ الآيتان: ١ -٢.

(٢) سورة الواقعة/ الآيتان: ٧٥ -٧٦.

(٣) سورة هود/ الآية: ٨.

(٤) سورة الواقعة/ الآية: ٧٥.

(٥) سورة الطارق/ الآيات: ١- ٣.

أهل نينوى، وهكذا كل قسم يتقدمه حرف (و) فإنه يريد به الماضي الذي مضى وانقضى.

وأما القسم الثاني فهو إنذار بحادث أو عذاب سيقع فيما بعد، وهو كل قسم يتقدمه كلمة (فلا) كقوله تعالى ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ ﴾[1]، وقوله تعالى ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾[2]، ومعناه إن لم تؤمنوا أرسلت عليكم ما ذكرته من العذاب في مستقبل الزمان. أو يتقدم القسم (لا) أو (إذا) كما في قوله تعالى ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾[3]، وقوله ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ ﴾[4]، وقوله ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾[5]، فهذه من قبيل قسم المستقبل الذي سيقع في مستقبل الزمان.

٥. ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ ﴾[6]،

إذا تشققت الشمس يوم القيامة، خرجت منها غازات عظيمة ملأت فضاء الكواكب، وكذلك يخرج منها النار وألسنة اللهب وتملأ الأقطار، وستصل النار إلى الأرض وباقي الكواكب فتصيب النفوس الباقية على الأرض ولا نجاة منها.

وذلك لأن الأرض وباقي الكواكب ستكون قريبة من الشمس، حينها ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ فالدخان ينبعث من الشمس حين تتشقق، وهذا الدخان خليط من سبعة غازات مثلما ذكرنا من طبقات السماوات الغازية، ويقول الحق ﴿ يُرۡسَلُ

---

(١) سورة التكوير/ الآيتان: ١٥-١٦.

(٢) سورة الواقعة/ الآية: ٧٥.

(٣) سورة القيامة/ الآية: ١.

(٤) سورة الشمس/ الآيتان: ١-٢.

(٥) سورة الضحى/ الآيتان: ١-٢.

(٦) سورة الدخان/ الآيتان: ١٠-١١.

عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾[1]، يعني من الشمس المتمزقة، فالشواظ هو لهيب النار، والنحاس هو اللابة والسوائل المنصهرة التي تخرج من الشمس بعد انفجارها. والنحاس مذكر لنحس، وجمع المؤنث نحسات، قال الله تعالى في سورة فصلت ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾[2]. ولكن كيف تنبعث الغازات من الشمس فيتكون الدخان، الجواب هو أن الغازات تتراكم في جوف الشمس فحينئذٍ تضغط على الطبقة الأولى في الشمس فتنفطر فتأخذ الغازات في الخروج، وبخروجها يكون لها صوت عظيم، ويستمر هذا الصوت حتى تخف وطأة الغازات المنبعثة من الجهة التي تلي ذلك الصدع فيكون الصوت قليلاً. ثم بعد ذلك تهجم الغازات التي في جوف الشمس نحو الصدع لتخرج منه لأنها وجدت سبيلاً للخروج، فيتوسع الصدع بخروجها ويكون لها صوت أشد وأعظم من الأول، ويستمر الصوت حتى تنفجر الشمس وتتشقق فتكون تسع عشرة قطعة. وهذا الحادث يجعل خللاً عظيماً في النظام، لأن الشمس أم السيارات وهي الجاذبة لهنّ فإذا تشققت فإن جاذبيتها تنفصل عن السيارات فيسقطن في الفضاء، فإذا كان كذلك فإن الأرض وباقي الكواكب تأخذ في الرجفة والزلازل، ويأخذ أهلها الفزع والخوف حتى تتمزق الأرض وتموت الناس، فعندها تترك الناس الأرض وتعرج النفوس ذاهبة إلى المحشر ولا يبقى أحد على وجهها.

يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾[3]، فقوله تعالى ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ ﴾ يريد بذلك يوم القيامة، والمعنى: ولئن زالتا يوم القيامة عن الجاذبية فهل أحد يمكنه أن يمسكها غير الله.

---

(١) سورة الرحمن/ الآية: ٣٥.

(٢) سورة فصلت/ من الآية: ١٦.

(٣) سورة فاطر/ الآية: ٤١.

وقال تعال في سورة النمل ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾[1]، فالصور هو الطبقة الباردة التي تتكون على وجه الشمس، والنفخ يكون من جوفها وهي الغازات التي تنبعث من الصدع فهي تنفخ في الصور أي في القشرة الباردة التي تتكون للشمس، وقوله تعالى ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي السماوات الغازية وهي مسكن الجن ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فالأرض هنا يريد بها كلها أي باقي الكواكب التي انفصلت عنها، والمعنى ففزع من في الطبقات الغازية ومن في الأرض وما يلحق بها من الكواكب، ثم استثنى سبحانه سكان السماوات الأثيرية وهم الملائكة فقال ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ وقال ﴿ وَكُلٌّ ﴾ من الإنس والجن ﴿ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ أي مطيعين منقادين.

وقد جاء ذكر السماوات الغازية قبل ذكر الأرض، لأن السماوات الغازية مسكن الجن وقد خلقها الله قبل الإنس ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾[2].

وقال تعالى في سورة الزمر ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[3]. فقوله ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أي ينظرون جزاء أعمالهم والضمير في قوله ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ يعود إلى النفوس، والمعنى فإذا نفوسهم قائمة عن الأجسام ينتظرون جزاء أعمالهم، ففي النفخة الأولى تفزع الناس ويصعقون وفي الثانية يموتون ويقومون للحساب والجزاء أي تقوم نفوسهم للحساب.

---

(١) سورة النمل/ الآية: ٨٧.

(٢) سورة الحجر/ الآية: ٢٧.

(٣) سورة الزمر/ الآية: ٦٨.

وقال تعالى في سورة الحاقة ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ ﴾[1]، فقوله تعالى ﴿ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ لأن النفخ مستمر من الشمس فكأنما النفختين هما واحدة لاتصال الأولى بالثانية.

وقوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾[2]، فالناقور يريد به الصور، والصوت الذي يخرج منه يكون بواسطة نفخ الغازات فيه، وأما قوله تعالى وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾[3] أي تهدمتا دفعة واحدة، والمعنى فتهدمت السيارات والجبال دفعة واحدة.

فإذا انصدع وجه الشمس وظهر الصوت (النفخ في الصور) فعندها تأخذ الأرض في الرجفة والزلزلة حتى تتمزق، قال الله تعالى في سورة الحج ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾[4]، أي إن زلزلة الساعة حادث عظيم الوقع في النفوس، والساعة هي القيامة، والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة الزلزلة ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾[5]. فقوله تعالى في سورة الحج ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ أي ترون زلزلة الأرض وتشاهدون ذلك الحادث الذي تتمزق فيه الأرض والمجموعة الشمسية وتقوم القيامة، حينئذٍ الحج ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ

---

(١) سورة الحاقة/ الآيات: ١٣ -١٥.

(٢) سورة المدثر/ الآيتان: ٨ -٩.

(٣) سورة الحاقة/ الآية: ١٤.

(٤) سورة الحج/ الآيتان: ١ -٢.

(٥) سورة الزلزلة/ الآيات: ١- ٥.

﴿ حَمۡلَهَا ﴾ لقد أخبر الله عن أهوال يوم القيامة وما يحدث من تقلبات كونية وخوف وفزع.

وقال سبحانه وتعالى في سورة المزمل ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴾[1]، وقوله تعالى ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ ﴾[2]، أي تتبعها المصيبة الثانية التي تردفها، ويريد بها تشقق الأرض، لأن الأولى إرجافها والثانية تمزقها وانتشار أجزاءها في الفضاء. وما سرى على الأرض من حالة التمزق يسري على بقية السيارات (الكواكب) الأخرى أيضاً، فهي أيضاً تتهدم وتتمزق وتنتشر في الفضاء فتكون نيازك، كما أن النيازك الموجودة اليوم كانت كواكب في قديم الزمان ولما قامت قيامتها تمزقت وصارت نيازك، يقول الحق في سورة الانفطار ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ ﴾[3].

وللجبال نصيبها من هذه الحالة أيضاً حيث أنها تنسف، يقول الله سبحانه ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ۝١٠٧ ﴾[4]، فهذه الجبال نتيجة انعدام الجاذبية تصبح كثيباً مهيلاً وعرضة لعوامل التعرية والتآكل، والرياح تنسف الجبال إلى البحار والمحيطات وبذلك تصبح الأرض صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا وهذه الحادثة قبل يوم القيامة، أما يوم القيامة فإذا الجبال تصبح كثيباً مهيلاً والدليل قوله تعالى ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ۝١٤ ﴾[5]، أي كأنها تلال من الرمال تنهال إلى السفوح بأقل حركة، فتجرفها

---

(١) سورة المزمل/ الآية: ١٤.

(٢) سورة النازعات/ الآيتان: ٦ -٧.

(٣) سورة الانفطار / الآيتان: ١ -٢.

(٤) سورة طه/ الآيات: ١٠٥ -١٠٧.

(٥) سورة المزمل/ الآية: ١٤.

الرياح إلى الأراضي المنخفضة، والدليل قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾[1].

والسماء هي أيضاً مسرح لهذه النهايات إذ يقول رب العزة ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[2]، فلفظة سماء هنا يريد بها الطبقات الغازية، والسجل هو الدلو الكبير المصنوع من الجلد وجمعه سجال، والطي معناه الانحطاط في القوى والتدهور في الأمور والتفسخ في الكتل. والكتب جمع كتاب وهو الرقعة أو أي شيء آخر، وكانت كتب العرب من عظام الحيوانات كعظم اللوح، أو من جريد النخل، أو من جلود الأنعام، وكانت العرب تضع كتبها في السجل من غير ترتيب، بل كانت مخلوطة الحجر فوق الجريد، والجريد فوق العظام، والعظام فوق الجلود، وعموماً معنى الآية: يوم نمزّق الطبقات الغازية ونخلط بعضها مع بعض كما يخلط سجلكم الكتب بعضها فوق بعض، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ ﴾ أي كما بدأنا تكوين الطبقات الغازية من الدخان كذلك نعيدها يوم القيامة دخاناً ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ وإنما قال ﴿ كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ على الماضي أي إنا فعلنا ذلك فيمن مضى قبلكم لما قامت قيامتهم وشققنا تلك السماوات الغازية التي كانت فوقهم، وكذلك نفعل لما تقوم قيامتكم.

وقال الله تعالى في سورة الرحمن ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾[3]، فالسماء هنا هي الطبقات الغازية، والورد كناية عن اللون الأحمر، والدهان جمع دهن، وهي نقرة تكون بين الجبال تجتمع فيها مياه الأمطار، وكانت في

---

(١) سورة المعارج/ الآيتان: ٨-٩.

(٢) سورة الأنبياء/ الآية: ١٠٤.

(٣) سورة الرحمن/ الآية: ٣٧.

دولة الإمارات العربية المتحدة نُقر من مناجم الحديد وفيها أوكسيد الحديد الأحمر، المعروف عند العامة باسم (مغر) وكانوا يأخذون المغر من تلك الدهان ويصبغون به بعض الأشياء، ولذلك صاروا يضربون بها المثل.

وقال عز من قائل في سورة المعارج ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾[1]، والمعنى تكون السماء في ذلك اليوم كالزيت العكر حيث تختلط تلك الغازات وتكون كالدخان.

ثم بعد هذه الأحداث وتمزق المجموعة الشمسية ماذا بعد ذلك اليوم إنه يوم القيامة، فإذا كان ذلك اليوم فإن النفوس تنفر من الأرض ولا يبقى على الأرض سوى الأجسام الميتة، وفي ذلك اليوم يكون الحشر والحساب والجزاء.

وقوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ ﴾[2]، يعني في ذلك اليوم تقوم القيامة، وفي تدك الأرض والجبال أي تنهدم. وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[3]، أي تتشقق الأرض عن النفوس سراعاً.

وقوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾[4]، فقوله تعالى ﴿ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ يعني يتمنون لو تعد الأرض كما كانت فتلتحم بعد تشققها ويختفون فيها كما كانوا مختفين في قبورهم ولم يكن حشر ولا حساب.

وقوله تعالى ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾[5]، فقوله ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ يعني ألقت ما فيها من النفوس في الفضاء

---

(١) سورة المعارج/ الآية: ٨.

(٢) سورة الحاقة/ الآيات: ١٣ -١٥.

(٣) سورة ق/ الآية: ٤٤.

(٤) سورة النساء/ الآية: ٤٢.

(٥) سورة الانشقاق/ الآيات: ١ -٤.

وفرغت منهم، ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة الزلزلة ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ ﴾[1]، يعني أخرجت النفوس التي كانت ثقيلة على الأرض، وهي النفوس الشريرة، فمن كان سيء الخلق جباراً مكتبراً ظالماً مذمومة أفعاله يسمى (ثقيل)، والدليل قول أحد الشعراء:

إذا حلَّ الثقيل بأرض قومٍ

فما للساكنين سوى الرحيل

وإذا جاء ذلك اليوم وظهرت تلك الآيات من اتساق القمر وانشقاقه وانجذابه نحو الشمس، ووقوف الأرض عن دورتها، ودوام الليل في جهة من الأرض، ودوام النهار في الجهة الأخرى، وتسيير النيازك نحو الشمس وغيرها من الآيات فحينئذٍ تغلق أبواب التوبة ولا تقبل توبة من يتوب من الكافرين والجاحدين والفاسقين.

فعلى كل عاقل أن يتوب اليوم ويرجع إلى ربه ويستغفر الله عما سلف منه، قال الله تعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٥٨ ﴾[2]، فالآيات هنا معناها ما سيأتي من أحداث يوم القيامة، لأن قريشاً طلبت من النبي خرق العادات فنزلت هذه الآيات.

(١) سورة الزلزلة/ الآية: ٢.

(٢) سورة الأنعام/ الآية: ١٥٧.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. أبحاث في العلم والسلم، ١-٢، خالص جلبي، دار الكتب العربية، بيروت، ١٩٩٤م.
٣. الإسلام والعلم الحديث، عبدالرزاق نوفل، الناشرون العرب، ١٩٧٦م.
٤. الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، المختار الإسلامي، ١٩٧٣م.
٥. الله والعلم الحديث، عبدالرزاق نوفل، مصر.
٦. الإنسان بعد الموت، محمد علي حسن الحلي، بغداد.
٧. حتى لا نخطئ فهم القرآن، محمود غريب، بغداد.
٨. الخطاب الإستثاري للحواس في القرآن الكريم، علي غانم سعدالله، دار الكتاب الثقافي، الأردن، ٢٠١٢.
٩. صحيح البخاري، مطابع الشعب المصري.
١٠. صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١١. الطب محراب الإيمان، خالص جلبي، بغداد.
١٢. الطغيان والطواغيت في القرآن الكريم، الشهيد سيد قطب، دار الفضيلة، ١٩٩٣.
١٣. العلم يدعو للإيمان، ترجمة محمود الفلكي لكتاب (الإنسان لا يقوم وحده) لكريستي موريسون، مكتبة النهضة المصرية.
١٤. في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٥. القرآن محاولة لفهم عصري، مصطفى محمود، دار الشروق، ١٩٧٠.
١٦. القرآن يفك لغز الأرض، شاكر عبدالجبار، بغداد، ١٩٨٥.
١٧. كما تحدث القرآن، خالد محمد خالد، مكتبة وهبة، ١٩٦٥.
١٨. الكون العجيب، قدري طوقان، سلسلة إقرأ المصرية، رقم ١١.

١٩. الكون والقرآن، محمد علي حسن الحلي، بغداد.
٢٠. مع الله في السماء، أحمد زكي، دار الهلال.
٢١. ملامح كونية في القرآن، شاكر عبدالجبار، بغداد.
٢٢. المنهج العلمي للاعتقاد، شاكر عبدالجبار، بغداد.
٢٣. نحو مجتمع إسلامي، سيد قطب.

فهرس المحتويات